مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

جمادى الأولى 1439 هـ - يناير 2018م

• «التصوّف الإسلامي»
• فرانشيسكو ألفونسو ليتشيزي

• «الأمراض المزمنة للديمقراطية»
• لفريدريك وارمز

• «السلفية بمواجهة الديمقراطية؟»
• ديرك فيرهوفستات

• «التباين»
• سلافوي جيجك

• «الموجةُ الرابعةُ آتية»
• لتشوي هيون شك

• الصهيونية الدينية : التاريخ،الفكر، المجتمع
• لدوف شفارتز

• «المُسَاوَاتيُ العظيم»
• لوالتر شيدل

• «السيكولوجية السياسية وراء الفاشية»
• بي. بي. ساتيان

• «أوكرانيا!وهل كانت هناك أوكرانيا؟»
• لأناتولي تيريشينكو

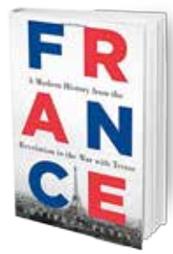

• «فرنسا : التاريخ المعاصر من الثورة إلى الحرب على الإرهاب»
• جوناثان فانبي

• « النار والغضب من داخل بيت ترامب الأبيض»
• ميكائيل وولف

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الأطروحات التي أنجزها العمانيون في الخارج رسالة دكتوراه بعنوان «تحكم آلي بإنتاج شركة تنمية نفط عمان (بي دي أو) وأنظمة الطاقة المترابطة للشركة العمانية لنقل الكهرباء (أوإتك)»، قدمها الدكتور عادل بن غالب البوسعيدي لجامعة تيساید في بريطانيا سنة ٢٠١٢.

يذكر الباحث في ملخص دراسته أنّ شركة تنمية نفط عمان، والشركة العمانية لنقل الكهرباء تُشغّلان شبكات نقل الكهرباء الرئيسية في سلطنة عمان بجهد قدره ١٣٢ كيلو فولت. في عام ٢٠٠١، كانت شبكات شركة تنمية نفط عمان والشركة العمانية لنقل الكهرباء مترابطة بجهد قدره ١٣٢ كيلو فولت عبر خطوط الطاقة العالية التي تربط محطة النهضة في جهة تنمية نفط عمان بمحطة نزوى في جهة الشركة العمانية لنقل الكهرباء. منذ ذلك الحين يتم تبادل الطاقة بين الشركتين مدفوعة بالمُعاوَقَة الطبيعية للنظام، ويسيطر على تكرار الطاقة وتبادلها يدويًا بإعادة إيفاد المولدات. ويذكر الباحث أنه في ضوء هذا الحمْل اليومي، والربط الكهربائي المتوقع لدول مجلس التعاون الخليجي، فإنَّ التحدي الكبير لمُشَغّلات شبكة الشركتين هو الحفاظ على فلسفة التشغيل الحالية.

وهدف هذا البحث، كما يذكر البوسعيدي، هو دراسة تقنية التحكم الآلي بالإنتاج كمقترح للسيطرة على تردد الشبكة وتبادل الطاقة بين شبكتي شركة تنمية نفط عمان والشركة العمانية لنقل الكهرباء. ولهذا الغرض، طور الباحث نموذجًا لنظام الطاقة الديناميكية ليمثّل نظام الطاقة المترابطة بين الشركتين. وتمَّ التحقق من صحة النموذج باستخدام البيانات المسجلة من الميدان التي سوّغت ضرورة صقل هذا النموذج. ويؤكد الباحث أنه قد اتبع نهجًا جديدًا خلال عملية صقل النموذج مما أسهم في خفض خطأ النمذجة إلى حد مقبول. ثم تمَّ استخدام النموذج المُحسّن لتقييم أداء مختلف مكونات التحكم الآلي بالإنتاج. وقد تم تحسين مكونات التحكم الموصى بها بشكل أكبر باستخدام تقنيات تحكم متطورة مثل المنظم الخطي التربيعي (LQR) والمنطق الترجيحي (FL). ويقول الباحث إنَّ إخضاع برنامج التحكم الآلي بالإنتاج لضابط تحكم هجين أظهر نتائج مبهرة. وأخيرا، أجرى الباحث تقييماً نوعياً لفوائد مشروع ربط شبكة الكهرباء بمجلس التعاون الخليجي وتطبيقها على شركة تنمية نفط عمان والشركة العمانية لنقل الكهرباء من خلال منهج نموذجي.

ويؤكد الباحث أنَّ النتائج أثبتت أن الربط الكهربائي بين دول مجلس التعاون الخليجي سيُحقق فوائد كبيرة للشركتين ولكن يجب أن تكون طاقة الربط بينهما عالية. ويخلص الباحث إلى أنَّ تطبيق مقترح التحكم الآلي بالإنتاج على الشركتين سيخفف من متطلبات تعزيز طاقة الترابط بين الشركتين التي سيفرضها الربط الكهربائي بين دول مجلس التعاون الخليجي.

ويختم الباحث دراسته بالقول إنّه في ضوء صعوبات مصادر البيانات، بذل كلّ جهد ممكن لوضع افتراضات عملية معقولة. ويرى أن التوصيات العملية لدراسته يمكن أن يوظّفها مهندسو أنظمة الطاقة لشركة تنمية نفط عمان والشركة العمانية لنقل الكهرباء.

hilalalhajri@hotmail.com

«السلفية بمواجهة الديمقراطية؟».. لديرك فيرهوفستات

عبدالرحمن السليمان *

لا تزال هجماتُ الحادي عشر من سبتمبر، والأحداثُ التي تلتها؛ مرورًا بظهور تنظيم داعش وانتهاء بالهجمات الإرهابية التي يشنها أنصار تنظيم داعش في العواصم والمدن الغربية، تثير في الغرب تساؤلات حول الإسلام وعلاقة بعض التعاليم الإسلامية -كما يروج لها في بعض مواقع الشبكة العنكبية- بالتطرف المؤدي إلى الإرهاب. طرحت هذه التساؤلات، ولا تزال تطرح في العديد من مراكز البحث الإستراتيجية والمؤسسات والمعاهد العلمية والجامعات وكذلك في الصحافة. منذ ذلك الوقت، تصدر الكتب والدراسات التي تعالج موضوع النزاعات القومية والطائفية في العالم العربي والإسلامي، وكذلك ظاهرة التطرف لدى بعض الشبان المسلمين الذين نشأوا وترعرعوا في الغرب، تباعًا. من هذه الكتب التي صدرت أخيرًا كتاب «السلفية بمواجهة الديمقراطية» لمؤلفه البلجيكي ديرك فيرهوفستات. يطرح هذا الكتاب بعض القضايا الشائكة على الرأي العام البلجيكي، وهي القضايا التي باتت تلح بنفسها على المواطنين في الغرب عمومًا، والمسلمين منهم خصوصًا.

في هذا العمل، يناقش جيجك بواسطة «العيون» الهيجلية ثلاثة مواضيع رئيسة مختلفة: الأنطولوجي: على ضوء الاكتشافات العلمية التي تُظهر بشكل مستمر التناقضات والنقص في تصورات الإنسان عن الكون، والحقيقة، والذات، والمقدس...وغيرها من المواضيع، كما يناقش الجزء الثاني الجانب الجمالي: وعلاقته بالحداثة، والجمال، والقُبح، والجانب الموسيقي من المنظور الهيجلي، في حين أن الجانب الثالث يناقش اللاهوت السياسي ويتطرق للتحولات المختلفة في جوانب السلطة، والعادات، والعلاقات الاجتماعية. وهو في ذلك يُعرّج كعادته على الكثير من المواضيع المتداخلة، والأسماء التي تبدو متباعدة، والتخصصات التي تُعتبر تقليديا بدون روابط، وهنا مكمن قوة وأصالة أطروحات الفيلسوف السلوفيني، «التي لم تبقِ موضوعا على الأرض لم يكن قمحا لمطحنة جيجك الثقافية» كما قال ذات يوم الناقد الانجليزي الشهير تيري إيجلتون.

تنبع أهمية هذا الكتاب من كون الكاتب واحدًا من أهم المفكرين الليبراليين في الأراضي المنخفضة، وأستاذًا جامعيًا له حضور قوي في الحراك الثقافي والاجتماعي والسياسي في بلجيكا. فهو أخو السياسي الليبرالي البلجيكي المعروف غي فيرهوفستات الذي شغل منصب رئيس وزراء بلجيكا من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٨ في ثلاث حكومات متتالية، والذي يرأس حاليًا كتلة «اتحاد الليبراليين والديمقراطيين من أجل أوروبا» في البرلمان الأوروبي، وواحد من مفكري الحزب الليبرالي البلجيكي الذين يدعون إلى تحقيق أهداف المذهب الليبرالي في السياسة والاقتصاد والمجتمع والدين. وهو من المثقفين الحركيين الذين يكافحون في سبيل إخراج الدين ورموزه الشكلية من المجتمع والحياة العامة. بذلك يكون الكتاب وثيقة تختصر الكثير من الكتب والدراسات التي كتبت في العلاقة الشائكة بين الغرب والإسلام السياسي على وجه الخصوص.

يبحث الكاتب في كتابه العلاقة بين ما أصبح يُدعى بالإسلام الراديكالي، والديمقراطية الغربية. ويركز في طرحه كثيرًا على المؤسسات والجمعيات السلفية من جهة، وعلى الأعمال الإرهابية التي تنفذ باسم تلك المؤسسات والجمعيات السلفية من جهة أخرى. ثم يطرح السؤال التالي: «هل تمثل السلفية تهديدًا لديمقراطيتنا، وكيف يمكن لنا أن ندافع عن أنفسنا ضمن حدود دولة القانون»؟ يمثل هذا السؤال الأطروحة العامة للكتاب، ويحاول الكاتب الإجابة عنه بوضوح يتمثل في دعوته إلى سحب الترخيص القانوني من الجمعيات ذات التوجه الراديكالي التي تريد تقويض أسس الديمقراطيات الغربية، ومنعها من مزاولة أي نشاط في بلجيكا. كما يدعو إلى إعادة النظر في فكرة التسامح ويعتبر التحلي به مع جمعيات إسلامية سلفية التوجه في الغرب «يرفض أعضاؤها طريقة الحياة الغربية» ويدعون إلى تغييرها بالعنف، ضربًا من السذاجة. ثم يختم الكاتب دعوته بحَثّ المجتمع المدني على الدفاع عن القيم الديمقراطية المكتسَبة المتمثلة في حرية التعبير عن الرأي والفصل بين الدين والدولة والمساواة بين الرجل والمرأة والحق في تقرير المصير الشخصي.

وبهذا، فإن الكتاب يندرج تحت تلك الكتب والدراسات الكثيرة التي أصبحت تنظر بعين الريبة إلى الإسلام والمسلمين في الغرب نتيجة للهجمات الإرهابية التي وقعت في الغرب منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حتى عملية برشلونة في إسبانيا، وعملية مدينة تركو في فنلندا في أغسطس ٢٠١٧، وذهب ضحيتها مواطنون أبرياء كثيرون. وإذا كان أكثر تلك الكتابات يندرج تحت التعميم الظالم وتهييج الرأي العام ضد المسلمين في الغرب الذين يقدر عددهم بحوالي ستين مليونًا، فإن هذا الكتاب يحاول بوضوح التأثير في القرار السياسي وجعله يعيد النظر في التراخيص الممنوحة لمؤسسات محسوبة على التيار السلفي، وفي مقدمتها مسجد بروكسيل الكبير الذي تديره رابطة العالم الإسلامي، وتحويل ملكيته والقيمومة عليه وإدارة أنشطته إلى المجلس الإسلامي البلجيكي المتكون من مسلمين بلجيكيين ينتخبهم المسلمون البلجيكيون ليمثلوهم لدى الحكومة وليرعوا مصالحهم في تعليم مادة التربية الإسلامية وإدارة المساجد والمقابر الإسلامية. كما يحاول أن يكون موضوعيًا في طرحه الذي يميزه عن غيره الوضوحُ في الرؤية والتعبير عنها معًا.

يقسم الكاتب كتابه إلى أربعة عشر فصلاً يستهلها بالقول: «إن الجيل الأوروبي الحالي هو أول جيل أوروبي في التاريخ نشأ وترعرع بدون أن يعرف ويلات الحروب». فهذا الجيل يعيش منذ الحرب العالمية الثانية «في مجتمعات ديمقراطية تعترف بحقوق المواطنين وحرياتهم وتدافع عنها». ثم يسرد الكاتب تلك الحريات؛ وأهمها: «حرية التعبير عن الرأي وحرية تقرير المصير وحرية التنقل بحرية داخل الاتحاد الأوروبي وخارجه وحق التصويت وانتخاب الحكام وانتقاد سياساتهم وحرية اختيار الزوج والصديق والحزب السياسي والتجمعات، وحرية الملبس والمأكل، وحرية التقاضي واللجوء إلى القضاء لفض النزاعات بطريقة نزيهة»...الخ. وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات الديمقراطية تبدو أمرًا بديهيا للنشء والشباب، فإنها لم تنشأ هكذا من تلقاء نفسها، «فلقد خاض آباؤنا وأجدادنا حروبًا عالمية شرسة من أجلها وضحوا في سبيل تمتع الأجيال اللاحقة بها بأرواحهم». ويضيف الكاتب بأن التمتع بهذه الحريات والحقوق لم يأت نتيجة للحروب والتضحيات فحسب، بل وكذلك «بعد التخلص من شياطين الماضي المتمثلة في التيارات القومية والفاشية والشيوعية» التي أصبحت من الماضي؛ «وبعدما جمعت هذه القيم الأساسية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨»، وكذلك «في المعاهدة الأوروبية لحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية سنة ١٩٥٠». ويضيف الكاتب بأن الدساتير الغربية أصبحت تعترف بهذه القيم وتنص على احترامها بصريح العبارة. ثم يتوقف عند النظام الديمقراطي الغربي ويستشهد بالفيلسوف الفرنسي ألان فينكيلكرو بأن «طاقة الديمقراطية الكبيرة تكمن في كونها أفضل من كل أنظمة تعايش الإنسان الأخرى لأنها -أي الديمقراطية- نصّت على ترسيم حق الاختلاف ودسترته في وظيفتها الأساسية». وهذا يعني أن الديمقراطية تعترف دستوريًا بحق الاختلاف الضامر في المجتمع ووجود الخلاف غير القابل للحل، وتتعايش معه بطريقة عقلانية. بل «إنها تحيا من حق الاختلاف لأنه مصدر طاقتها وتجدُّدها» كما يقول الكاتب، «ذلك أن نزعة الخلاف أو الاختلاف الضامرة في المجتمع لا يمكن لها أن تُزال منه» من جهة، «ولا أن تسيطر عليه» من جهة أخرى. إنه هذا الاختلاف الديمقراطي وهذا التدافع المستمر بين القوى من أجل ملء «المكان الفارغ» للقوة الذي لا يستطيع أيُّ شخص أو أيةُ مؤسسة أن يملأه لوحده وأن يسيطر عليه، هما اللذان يفسران لنا إغراء المستبدين الساعين إلى ملء ذلك «المكان الفارغ» والاستيلاء على القوة. من ثمة كانت الانتخابات الحل الأمثل للتعامل مع نزعة الاختلاف والتدافع هذه، «لأن خيارات المواطنين الانتخابية هي نتيجة لقناعاتهم الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفلسفية». وفي هذا السياق، فإن تغيير دفة الدفع داخل المجتمع ممكن دائمًا لأنه يبقى ضمن دولة القانون وضمن الحدود المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وفي الدساتير الوطنية.

ثم يسقط الكاتب هذا الكلام على العلاقة بين الديمقراطية وحرية التدين «مع التركيز فقط على الحركات الإسلامية المتطرفة والهجمات الإرهابية التي تشن باسمها أو نتيجة لفكرها»، ويحاول أن ينظر إليها من منظوره الذي أطّر له

في أكثر من فصل واحد من الكتاب. ويستحضر المادة ١٨ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على حرية التفكير والضمير والدين ويقرر بأن الإنسان حر في اعتقاد ما يراه مناسبًا له وتطبيق شعائر دينه وطقوس معتقده كما يحب. ثم يستدرك: «مع ذلك فإن حرية التدين تتعارض أحيانًا مع حقوق الإنسان»، ويمثل على ذلك بأتباع الفرقة النصرانية «شُهود يَهوَه» الذين يحرمون على أنفسه ضخ دم جديد في جسم مريض بفقر الدم أو غيره يحتاج إليه من أجل البقاء على قيد الحياة، وذلك التزامًا بالآية الواردة في الإنجيل (أعمال الرسل، ١٥:٢٩): «أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ، وَعَنِ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا، الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَنِعْمَّا تَفْعَلُونَ. كُونُوا مُعَافَيْنَ». فَشهود يهوه يعتبرون أن الدم في هذه الآية يشمل حتى الدم المتبرع به لإنقاذ حياة إنسان، ويفضلون -والحالة هذه- تركه يموت على ضخ دم جديد في عروقه. ثم يعرض الكاتب لما يعتبره علاقة شائكة بين الإسلام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي جعل سببًا وخمسين دولة إسلامية تعتمد سنة ١٩٩٠ إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام، تتمثل في إشكالية النظرة إلى المرتدين عن الإسلام التي يعتبرها الكاتب متعارضة مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. فهو يرى أن هذا الإعلان العالمي ينص على حرية التدين، وأن بعض المعتقدات الدينية للديانات المختلفة -ومنها الإسلام- تتعارض مع حق تقرير المصير المنصوص عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أيضًا، مما يضيف إلى الديمقراطيات القائمة نزعة اختلاف جديدة تضاف إلى نزعات الاختلاف الأخرى الضامرة في المجتمع.

ثم يخصص الكاتب عدة فصول لمناقشة السلفية؛ أهمها: «أساس السلفية» و«أنواع السلفية». فيعرض في الفصل الأول إلى تاريخ الدعوة السلفية في الحجاز ويتوقف عند دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢) إلى الاقتداء بالسلف مع التركيز على أعمال الشيخ ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨) وأعمال الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠-٨٥٥) دون غيرهما من علماء الإسلام. ثم يتوقف عند المصطلح «سلفية» تمهيدا للتمييز بين المذاهب المختلفة فيها. ويرى أن السلفية بشكل عام تيار إسلامي محافظ جدًا مؤسس على عقيدة الولاء والبراء التي تدعو إلى الفصل بين المسلم وغير المسلم في مجتمع متعدد الديانات والأعراق والثقافات، و«إلى البراء من ذوي الأفكار المغايرة من المسلمين كالصوفيين والشيعة»، مما يؤدي إلى الاحتقان في المجتمع وربما الصدام. ويرى الكاتب أن أخطر طرح للسلفيين في الغرب هو «رفضهم للديمقراطية التي تضع القوانين الوضعية فوق الشريعة»، لذلك يرفض السلفيون في الغرب «مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، ومبدأ فصل الدين عن الدولة، ومبدأ حرية التعبير ومبدأ حرية تقرير المصير الخ». ولكن: هل هذا كاف لمنع السلفية في الغرب؟ «بالطبع لا»، يقول الكاتب، ويضيف بأنه لا يمكن إقصاء السلفية «ما دام السلفيون يعبرون عن آرائهم هذه بطريقة لا تضر بالمجتمع الديمقراطي». ويرى الكاتب في هذه الحالة أن السلفيين «لا يختلفون عن أتباع الديانات الأخرى الذين يجهرون بمعتقداتهم (مهما كانت غريبة) ويدافعون عنها»، في إشارة ضمنية إلى مواقف اليهود المتشددين وبعض الفرق النصرانية الأصولية كالطائفة الإنجيلية وشهود يهوه من قضايا اجتماعية وفكرية وفلسفية كثيرة لا تختلف في جوهرها شيئًا عن مواقف السلفيين. ويقرر الكاتب أنه يجب على المجتمع الديمقراطي التسامح إزاء الأفكار الدينية المحافظة مهما بدت غريبة ومرفوضة؛ فالمنع غير وارد ما دام الأمن والنظام العام للدولة لا يتأثران بتلك الأفكار. واستطرادًا في هذا السياق ينتقل الكاتب إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من السلفية، معتمدًا في ذلك على تقارير لمؤسسات سياسية وأمنية؛ هي:

(١) «السلفية غير السياسية التي تركز -عبر الوعظ- على التدين الشخصي والالتزام بالمنهج السلفي». يدين أصحاب هذا التيار استعمال العنف في الدعوة.

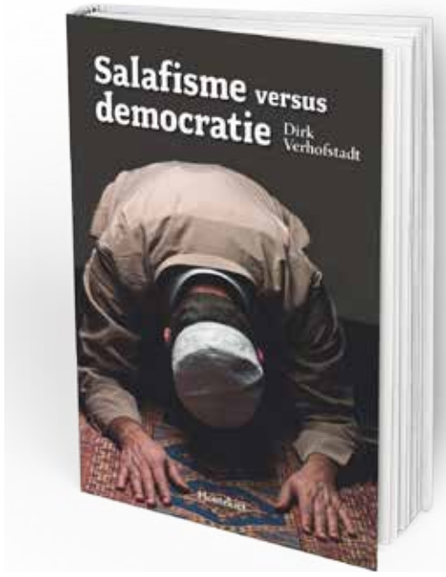

(٢) «السلفية السياسية التي تسعى -عبر الوعظ- إلى تحقيق حضور أقوى للتعاليم الإسلامية في المجتمع».

(٣) «السلفية الجهادية التي تسعى إلى تحقيق أهدافها باستعمال العنف»

ويضيف الكاتب بأن السلفية الجهادية تمارس الوعظ أيضًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي لاستقطاب الشباب إلى إيديولوجيتهم التي تعتبرها الأجهزة الأمنية «مرادفًا للإرهاب الإسلامي الحالي»؛ وذلك من أجل تجنيدهم للذهاب والقتال في بؤر النزاع في العالم الإسلامي التي تشهد توترًا طائفياً غير مسبوق خصوصًا في سوريا والعراق واليمن، أو من أجل شن هجمات إرهابية خارج الأماكن التي يوجد فيها تنظيم داعش، خصوصًا في الغرب. ذلك أن انتشار أفكار السلفية الجهادية بين بعض الشباب المسلم في الغرب إنما هو نتيجة للدعاية التي يروج لها تنظيم داعش في وسائل إعلامه. أهم هذه الأفكار: تنظيم الحياة الإنسانية في الغرب بناء حد مؤسس على عقيدة الولاء والبراء يفصل بين المسلم وغير المسلم في مجتمع متعدد الديانات والأعراق والثقافات، وإشعال فتيل الصدام بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات التي يوجدون فيها. في هذا السياق، يدعو لكاتب إلى سحب التراخيص من الجمعيات التابعة لـ«السلفية السياسية» و«السلفية الجهادية» التي تبرر استعمال العنف ضد جميع من يختلف أتباعُها معهم، سواء كانوا من أتباع المذاهب والتيارات الإسلامية الأخرى، أو من غير المسلمين.

ثم يركز الكاتب على ثلاثة نتائج؛ ضمَّنها فصولاً كثيرة في كتابه؛ هي:

(١) ضرورة التحلي بالتسامح تجاه التعددية في الآراء السياسية والاجتماعية «بشرط ألا تشكل هذه الآراء تهديدًا للديمقراطية».

(٢) ضرورة الدفاع عن الحقوق الأساسية للمواطنين «بغض النظر عن الأحزاب التي تحكم البلاد».

(٣) ضرورة الحيلولة دون ملء حزب ما «المكان الفارغ» للقوة واستيلائه عليه، وإنهاء نزعة الاختلاف الضامرة في المجتمع؛ «وبالتالي القضاء على الديمقراطية ذاتها».

ويستنتج الكاتب بالقول: «إن عدم احترام هذه النتائج الثلاث يؤدي بطريقة تلقائية إلى الاستبداد». ويلمح الكاتب بذلك إلى القول بطريقة تصل إلى حد التصريح بأن الحركة السلفية عمومًا والحركة الجهادية السلفية خصوصًا إنما هي ذلك الحزب الذي يحاول ملء «المكان الفارغ» للقوة والاستيلاء عليه وإنهاء حق الاختلاف الضامرة في المجتمع والقضاء بالتالي على الديمقراطية ذاتها، ويدعو إلى ضرورة التصدي لها ضمن حدود دولة القانون للحفاظ على الديمقراطية أولاً، ثم على الحقوق والحريات المكتسبة للمواطنين في أوروبا وسائر دول الغرب ثانيًا.

لا يختلف الكتاب كثيرًا عن سلسلة الكتب والدراسات الكثيرة التي تصدر تباعًا حول قضية التطرف الإسلامي الذي أنتج القاعدة وداعش وأخواتهما. لكنه يتميز عن أكثرها بمنهج علمي واضح ولغة واضحة وصريحة لا تنقصها الموضوعية العلمية بقدر ما ينقصها إخفاق الكاتب في إخفاء استيائه من الدين والتدين عمومًا، والإسلام خصوصًا. فالكاتب عَلماني ليبرالي ينتمي إلى المدرسة العلمانية الفرنسية الملتزمة، ذلك أن العَلمانية في الغرب علمانيتان: واحدة بمثابة تيار مدني إنسني عام يدعو إلى التحرر من هيمنة الدين دون إلغائه (يسميها المفكر الراحل عبدالوهاب المسيري: «العلمانية الجزئية»)، نجدها في كل دول الغرب بدرجات متفاوتة، خصوصًا في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. وأخرى بمثابة إيديولوجية سياسية حركية كفاحية (يسميها المسيري: «العَلْمانية الشاملة»)، نجدها في فرنسا والبرتغال فقط. ففرنسا والبرتغال هما الدولتان الوحيدتان تقريبًا اللتان تُطبِّق العلمانية فيهما تطبيقًا شموليًا يهدف إلى إلغاء دور الدين كليًا من المجتمع. والكاتب ينتمي إلى هذا التيار العلماني الكفاحي الذي يرى -مثله في ذلك مثل الكنيسة الكاثوليكية- أن وجود المسلمين في الغرب أعاد إلى التدين اعتباره. وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية -أكبر كنائس النصرانية- تعتبر هذا التطور إيجابيًا لأنه يجعل الكاثوليكيين يعيدون النظر في تدينهم ويحدون هويتهم الدينية من جديد بالمقارنة مع جيرانهم المسلمين الذين أصبحوا يلتقون معهم في مواقف معينة مثل موقفهم من الإجهاض والموت الرحيم وزواج المثليين وما أشبه ذلك من قضايا لا تختلف مواقف النصارى واليهود والمسلمين بشأنها، فإن العلمانيين أتباع «العَلْمانية الشاملة» مستاؤون جدًا من هذا التطور. والكاتب لا يخفي امتعاضه من ذلك في كتابه، فهو يقرر في أحد فصول الكتاب «أن الدين والرموز الدينية فقدت تأثيرها على المواطنين في العقود الأخيرة». ويضيف: «لقد أدت علمنة المجتمع إلى تقليص عدد المؤمنين الذي يرتادون الكنائس كثيرًا، وجعلت الآباء يقلعون عن تعميد أبنائهم لتكريسهم في الديانة النصرانية، وقلَّ عدد الذين يتزوجون في الكنيسة، وكادت شعائر الصوم والصلاة تختفي، وصار بعض الناس يختارون شريك حياة لهم من جنسهم، وقل عدد الذين يوصون بدفنهم في مقابر عامة وأصبحوا يفضلون حرق جثثهم ونثر الرماد في الطبيعة». ويضيف الكاتب بأن هذه الحالة بدأت تتغير مع هجرة المسلمين إلى الغرب. «فالمسلم (العادي) يعتبر القرآن دستوره الأعلى، والسلفيون يرفضون الديمقراطية باعتبارها طاغوتًا ويدعون إلى الكفر به، ولكنهم يفعلون ذلك باستخدام آليات الديمقراطية، خصوصًا آلية حرية التعبير عن الرأي». وإذا كانت الديمقراطية تبيح ذلك وتبيح لأتباع الديانات أن يعتبروا كتبهم المقدسة دستورهم الأعلى، فإن الكاتب يدعو في نهاية المطاف إلى عدم قبول ما من شأنه أن يتعارض مع القيم العامة للحضارة الغربية كما تنص عليها الدساتير الوطنية والإعلان العاملي لحقوق الإنسان، وإلى سحب الترخيص من أية جمعية أو منظمة تنتمي إلى السلفية السياسية أو إلى السلفية الجهادية التي يدعو أتباعها إلى تدمير الحضارة الغربية، ويجندون الجنود لذلك.

- الكتاب: «السلفية بمواجهة الديمقراطية؟».
- المؤلف: ديرك فيرهوفستات.
- الناشر: دار هاوتكيت (بلجيكا/هولندا)، ٢٠١٦م، باللغة الهولندية.
- عدد الصفحات: ١٤١ صفحة.

* أستاذ الترجمة بجامعة لوفان في بلجيكا

الأمراض المزمنة للديمقراطية .. لفريديريك وارمز

محمد الحدّاد *

من المفارقات التي يعيشها الفكر العالمي حاليا أن الديمقراطية، فلسفةً ومفهومًا وشعارات سياسية، تكتسح العالم اليوم وتفرض نفسها في أجزاء كثيرة منه، بما في ذلك العالم العربي، كجزء أساسي من النقاش العام، في حين أنها، أي الديمقراطية، تشهد مراجعات عميقة وانتقادات حادة في عقر دارها ومنشأها وفي صلب المجتمعات العريقة في الديمقراطية التي اعتمدتها منذ عقود طويلة وأغرت بها غيرها، فهي التي تتعالى فيها الأصوات اليوم بالتشكيك في قدرة الديمقراطية على مواصلة تجسيد الحكم الصالح.

كتاب «الأمراض المزمنة للديمقراطية» لفريديريك وارمز من أحدث الكتب التي تعبر عن هذا التوجه، ويقدم محاولة يقول صاحبها أنه يرمي من خلالها إلى «إنقاذ» الديمقراطية من الانهيار وتخليصها من الأعراض الخطيرة التي توشك أن تعصف بها. والكاتب متخصص في فلسفة هنري برغسون، وقد سعى إلى المساهمة في الجدل حول الديمقراطية من منظور فلسفي لا قانوني، ولن تكون محاولته الأخيرة التي تطرح بحيرة سؤال مستقبل الديمقراطية في العالم الحالي.

يستفتح وارمز كتابه بالمعاينة التالية: خلال الثلاثين السنة التي تفصلنا عن سقوط حائط برلين، انتقل الخطاب حول الديمقراطية من التفاؤل المفرط إلى التشاؤم الواسع. في السابق، كانت تبدو الديمقراطية الليبرالية «نهاية التاريخ» والأفق المفتوح للعالم كله، اليوم أصبحت تحيط بالفكرة الديمقراطية تساؤلات شتّى وشكوك قويّة.

أطروحة ربط نهاية التاريخ بالديمقراطية أصبحت في ذاتها تحتمل معنيين متناقضين: النهاية بمعنى انتصار الفكرة الديمقراطية على كل منافساتها، أو النهاية بمعنى أن الفكرة الديمقراطية لم تعد تحمل الآمال والأحلام بتقديم الحلّ المطلوب لمعضلة الحكم. يؤكّد الكاتب منذ البداية اقتناعه بأن الديمقراطية لم تنته وأنّها تظلّ أفضل الحلول المطروحة، لكنه يؤكّد أنّها تمرّ بأزمة عميقة وهيكلية، وأنّ الطريقة الوحيدة لإنقاذها هي الاعتراف بهذه الأزمة ومناقشتها بكل صراحة.

نرى اليوم مظاهر هذه الأزمة في كل مكان، لقد تخلص أعداء الديمقراطية من عقدهم وأصبح رائجا أن نرى أشخاصا وتيارات تشكّك في المساواة بين البشر وتهاجم أديانا معينة وتدعو إلى العنف لحلّ المشاكل وتحدّ من الحريات العامّة باسم مقاومة الإرهاب، الخ. لكن علينا قبل ذلك أن نتساءل هل أنّ الديمقراطيّة نظام سياسي أم أنها تطلع ومثل أعلى في الحكم؟ إذا عرّفناها بالمعنى الأوّل، سنسلّم بأن تصاعد الحركات العنصرية والانفصالية والعنيفة شاهد على فشل الديمقراطيات في إدارة شؤون البشر، إما إذا احتفظنا بالتعريف الثاني فإنّنا نمنح الفرصة لانطلاقة جديدة للتجربة الديمقراطية، تأخذ بعين الاعتبار تعقيدات الأوضاع الحالية وما يترتّب عليها من تحديات غير مسبوقة أمام دعاة الديمقراطية.

وإلى حدّ سقوط حائط برلين، كانت الديمقراطية هوية للبلدان الغربية المناهضة للشيوعية، وكانت معركة الديمقراطية تخاض ضدّ عدوّ من الخارج. لكن المعركة حاليا هي في الداخل ولذلك هي تفرض مراجعات جذرية للفكرة الديمقراطية ذاتها. ولقد كانت الفكرة الديمقراطية محاصرة في السابق بـ «الكليانية» أو الشمولية، أي زعم بعض الأنظمة السياسية القدرة على تقديم «المعنى» الكلي أو الشامل للتاريخ والمجتمع (النازية، الفاشية، الشيوعية)، لكنها تواجه اليوم «العدمية» لدى المواطنين العاديين الذين يفقدون الإيمان بوجود «معنى» للتاريخ أو المجتمع، ويميلون إلى الفردانية المطلقة التي تحرّرهم من الانتماء الاجتماعي، بل المواطني أيضا، مستفيدين من التكنولوجيات الاتصالية الحديثة التي تشعر الفرد بأنّه «مواطن عولمي» وليس مواطن مجتمع أو دولة بعينها.

يؤكّد الكاتب أنّ من الخطأ تصنيف الديمقراطية على أنها نظام بين نظم سياسية، على غرار ما فعل أفلاطون أو أرسطو سابقا، ويصرّ على الديمقراطية بالمعنى الحديث هي قبل كل شيء اختيار قيمي (أخلاقي) يندرج ضمن فلسفة الحداثة، وأنه يظل هدفا ومثلا أعلى للبشرية. على عكس الديمقراطية القديمة كما تصورتها الفلسفة السياسية الإغريقية، نشأت الديمقراطية الحديثة في سياق التأمّل في الطبيعة الإنسانية وليس في النظم السياسية. عمل إيتيان دي لابوسي (De la Boétie) في رسالته المشهورة «الاستعباد الطوعي» على إبراز التناقض العميق في «الطبيعة» الإنسانية بين الرغبة في الحرية والرغبة في الهيمنة، وأقرّ بتوجّه البشر بصفة طوعية إلى قبول أغلال الاستبداد والعادات ليعيشوا سالمين آمنين. هذا التناقض داخل كل إنسان بين الحرية ذات التكلفة الباهظة والتقليد الآمن هو التحدّي الأبرز الذي واجهته الفكرة الديمقراطية منذ بداياتها (عاش لابوسي في القرن السادس عشر وبداية النهضة الأوروبية)، وتواجهه اليوم بفعل العولمة. المطروح علينا حينئذ أن نختار في النظر إلى المسألة بين إحدى طريقتين: طريقة هيغل وماركس اللذين ظنا أنه يمكن تجاوز المفارقة بتجاوز نظام سياسي معيّن، أو طريقة المنظّرين «الأخلاقيين» للديمقراطيّة، على غرار لابوسي، الذين نبهوا منذ البداية إلى أن القضية قيميّة قبل أن تكون سياسية، وأنّ الديمقراطية لا تنجح بمجرد تغيير نظام سياسي وإنما تنجح بتغيير الإنسان وثقافته، ليصبح قادرا على لجم رغباته المجحفة وأنانيته ويقبل بالآخر في كل المستويات: مستوى المشاركة مع الآخرين في الاستفادة من خيرات المعمورة مثل مستوى قبول الاختلاف مع الآخرين في العرق والدين. دون وجود أغلبية تحمل قيم التعايش المشترك، يصبح عسيرا أن نتحدث عن ديمقراطية ولو في ظل مؤسسات سياسية وانتخابات وصحافة وغيرها. وهذا ما يفسّر لماذا تنهار الديمقراطية اليوم في البلدان الأكثر حرصا على المؤسسات والانتخابات، فهي تتحوّل إلى سلوكيات شكلية مفصولة عن مضامينها القيمية الكبرى، تغيب عنها الشخصيات التي كان هنري برغسون يدعوها «الشخصيّات الخيّرة العظيمة»، تلك التي تطرح مبادرات قويّة لتحسين أوضاع البشر، مستفيدة من الحريات التي توفرها الأنظمة الديمقراطية، على غرار حركات تحرير العبيد أو حقوق النساء والعمّال أو استقلال المستعمرات. أمّا اليوم، فلم يعد المواطن في البلدان الديمقراطية يعبأ بالعمل السياسي لأنّ هذا العمل لم يعد يرتبط بقضايا إنسانية كبرى يمكن أن تحشد اهتمامات الناس وطاقاتهم. وفي هذا السياق، يذكر فريديريك وارمز بمفكر آخر من مفكري الديمقراطية الحديثة: جون جاك روسو. لقد اشتهر بكتابة «العقد الاجتماعي» لكنه في الواقع قد كتب هذا الكتاب بالتزامن مع آخر أقلّ شهرة عنوانه «أميل أو التربية»، عرض فيه برنامجا لتربية الشباب كي يكونوا قادرين في المستقبل على إنجاز العقد الاجتماعي المطلوب. إنّ شهرة الكتاب الأوّل دون الثاني مؤشّر على أحد الأمراض العميقة للديمقراطية، أي غياب التربية والثقافة الديمقراطية.

لقد انتبه الفيلسوف هنري برغسون إلى هذا الأمر عندما نبّه إلى أنّ المهمّ في الأحكام القيمية ليس مضمونها ولكن قابليتها للتعميم. الحكم مثلا بأن «لا تقتل» يكون حكما قيميا رائعا عندما يطبق على الجميع ويساهم في إيقاف الحروب بين جميع البشر، من هنا كانت الديمقراطية تعني القابلية للتحوّل القيمي من مجالات مغلقة إلى مجالات مفتوحة، وكانت المعارك الديمقراطية تلك التي تسعى إلى فتح أبواب جديدة لتعميم مكاسبها على عدد أكبر من الناس. أزمة الديمقراطية حاليا تتمثل في أنها تعمل بالاتجاه المعاكس: الفردانية تتحوّل في المجتمعات الديمقراطية إلى

انفصال الفرد عن مجتمعه، والمواطنة تتحوّل إلى عنصرية ضدّ الآخرين، والحرية تتحوّل إلى اقتصاد ليبرالي مفرط يسحق الفقراء والعمّال. وكلّ مظهر من هذه المظاهر الثلاث، أو الأمراض المزمنة، كما يدعوها الكاتب، قد تفاقم لأسباب ترتبط بالمجتمع الديمقراطي ذاته.

ينخرط هذا الكتاب، كما ذكرنا، ضمن موجة من المؤلفات النقدية للديمقراطية، تواترت في السنوات الأخيرة، ويمكن القول إنها تمثل تيارا يجد له جذورا بعيدة في الفكر الفلسفي والسياسي الحديث، كما أن كثرة هذه المؤلفات وتقاطعها في الأطروحات الرئيسية تبرّر استعمالنا كلمة «تيّار»، لأن المبحث المطروح قد استعاده كتّاب مختلفون ومن وجهات نظر متباينة، لكنّ الجامع بينهم هو نزعة التشكيك.

فأمّا الجذور فمحورها الفيلسوف فريدريك نيتشة، ثمّ فلسفة ما بعد الحداثة المستندة إليه والقائمة على نقد السرديات الكبرى، ومنها السرديّة الديمقراطية. يمثل الفيلسوف الإيطالي جياني فاتيمو لحظة أساسية في هذا النقد، من خلال كتابه المشهور «نهاية الحداثة»، حيث استند إلى نيتشة وهيدغر والهرمنطيقا. يمكن أن نذكر أيضا عالم الاجتماع الفرنسي ألان توران، صاحب كتاب «نقد الحداثة» (ترجمة عربية صادرة عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر) وقد دعمه بكتاب صادر بعده يحمل عنوان «ما هي الديمقراطية؟» (ترجمة عربية صادرة عن دار الساقي) وقد حاول فيه أن يجيب عن السؤال المطروح برفض فكرة الدولة المهيمنة والصراع بين السوق والبنى التقليدية للمجتمع، واقتراح تعريفا للديمقراطية محوره منح الضمانات التي تحول دون تسلط الأغلبيّة على الأقليات، وافترض أن هذه الضمانات هي التي ستحول دول صعود الأيديولوجيات «الهوية» (نسبة إلى الهوية) أو سيطرة أحكام السوق على السياسة. ولقد تفطّن توران مبكّرا إلى أنّ اختصار الديمقراطية في آليات مثل تنظيم الانتخابات النزيهة لن يكون كافيا لإدارة تجارب المجتمعات المنضمة حديثا إلى العالم الديمقراطي (وكان ينظر أساسا باتجاه أوروبا الشرقية بعد انهيار الشيوعية)، مؤكّدا ضرورة أن تكون الديمقراطية «ثقافة»، وأن تتحوّل إلى مكاسب ملموسة للفرد، وأن تقبل تنوّع المواطنين وطلباتهم وتقترح عليهم في الآن ذاته طرق التعايش المشترك بينهم.

لكنّ محاولات «تجديد» الثقافة الديمقراطية سرعان ما تحوّلت إلى تشكيك صريح في قدراتها على إدارة مجتمعات تتجه نحو التعقيد. ولقد أثار الكاتب الإسباني دانيال إينراريتي (Daniel Innerarity) جدلا واسعا عندما نشر كتابه «الديمقراطية دون الدولة : محاولة في حكم المجتمعات المعقدة»، فلم يتردّد في القول بأنّ السياسة أصبحت عاجزة عن إدارة المجتمعات المعقدة وأنّ علينا أن نعيد التفكير جذريا في معنى السياسة ومفاهيمها، منها مثلا أنّ الدولة لم تعد المعبّر الوحيد عن السيادة، ولا السياسة عقدا مع الشعب، ففي ظلّ العولمة، تصبح السيادة موزعة على أكثر من مؤسّسة، بعضها يتجاوز حدود دولة معينة، كما أنّ «الشعب» لم يعد موحّدا في مطالبه ورغباته. وعليه، فإن

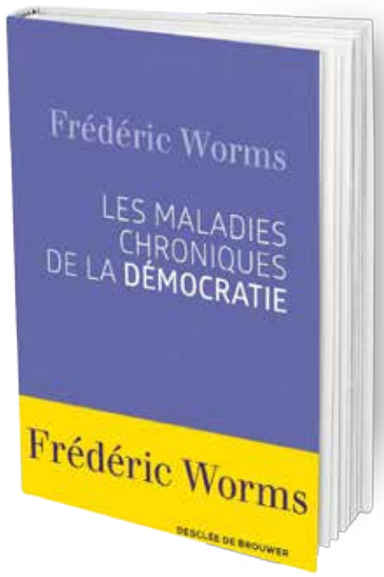

الوظيفة الديمقراطية هي تلك التي تسعى إلى التنسيق بين عدة أطراف متدخلة، كي لا يهيمن أحدها على الآخرين.

لكنّ آخرين يذهبون أبعد من ذلك، فلا يكتفون بما يدعوه إينراريتي بتراجع الدولة الديمقراطية. هكذا نشر جيرالد برونر سنة ٢٠١٤ كتابا ذا عنوان مستفزّ: «ديمقراطية المغفلين»، دافع فيه على أطروحة أنّ الديمقراطية أصبحت ثقافة لصناعة المغفلين، من خلال الصناعة الإعلامية التي توجّه المواطنين إلى مسائل جانبية وتافهة وتتلاعب بعقولهم وبأصواتهم في الانتخابات. وهذا الموقف المتشائم من الديمقراطية نجده أيضا لدى الكاتب نيكو غريمالدي الذي نشر سنة ٢٠١٤ كتابا عنوانه «أقول الديمقراطية»، حيث أعلن أن الأنظمة التي ندعوها بالديمقراطيات (في الغرب) لا تعدو أن تكون «أولغرشيات» تسيرها المصالح الخاصة، إلاّ أنّ الآلات الإعلامية والثقافية تحوّل فيها هذه المصالح إلى مصالح عامة ووطنية وتقنع جزءا كبيرا من الشعب بذلك. وإلى مثل هذا الموقف المتشائم ذهب الفيلسوف الألماني بيتر سلوتردجيك (Peter Sloterdijk) في كتابه «الطوفان بعدنا». وفي سنة ٢٠١٦، أصدر الكاتب الإيطالي رافئييل سيمون (Raffaele Simone) كتابه «ماذا لو أفلست الديمقراطية؟» وقد طرح فيه تاريخ الديمقراطية على مدى القرنين الماضيين، مبينا أنّ تطوّر هذا المبدأ كان على أساس الانتقال من أوضاع «طبيعية» وهي رغبة البشر في التفوق والجشع والهيمنة إلى عالم شبه مثالي يقوم على العدل والحرية والسيادة واحترام الأغلبية. لكنّ العولمة أوقفت هذا الانتقال وأعادت تأجيج المشاعر «الطبيعية» المباينة، بما يجعل الديمقراطية تتجه حتما نحو الإفلاس.

يختلف الكتاب الذي عرضناه هنا عن هذا التشاؤم، وقد يقترب أكثر من كتاب جون بيار لوغوف الصادر سنة ٢٠١٦ بعنوان «قلق في الديمقراطية» (عنوان يذكر بكتاب فرويد المشهور «قلق في الحضارة» وقد كتبه قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الثانية) أو كتاب دومينيك روسو «تجذير الديمقراطية» (صدر سنة ٢٠١٥). ففي هاذين الكتابين، نجد مقترحات عملية للخروج من أزمة الديمقراطية. فدومينيك روسو يميّز بين الديمقراطية «التقليدية» التي يدعوها بالديمقراطية التمثيلية، ويراها قد استنفذت أغراضها ولم تعد قادرة على التفاعل مع تعقيدات المجتمع وأوضاع العولمة، وبين الديمقراطية «المتواصلة» (أو التشاركية)، ويقصد تلك التي تتواصل بعد العمليات الانتخابية وتمارس في مستويات جزئية في المجتمع وتحشد الطاقات الفردية ومبادرات المجتمع المدني لإيجاد حلول للقضايا العملية التي تواجه المواطنين، فهذا الشكل هو الذي سيصمد أمام تحيدي الشكلانية التمثيلية وضغوطات الأسواق المعولمة. بل ذهب الكاتب إلى حدّ عرض مقترحات ملموسة مثل إلغاء وزارات العدل وتعويضها بمجالس عليا للقضاء تكون مسؤولة أمام البرلمانات، واعتماد طريقة الاقتراع النسبي في الانتخابات، ومنع تراكم المسؤوليات السياسية للفرد الواحد، الخ.

أمّا جون بيار لوغوف، فقد دعا إلى الخروج من «الفقاعة الفردانية» التي يعيش فيها المواطن في البلدان الديمقراطية، إذ أن هذا المواطن لا يهتم إلاّ بعمله ومسكنه، ويصرف باقي وقته في الترفيه، ويحدّد علاقاته مع الآخرين عبر شبكات التواصل الاجتماعي، فينفصل بذلك عن تعقيدات المجتمع. صحيح أن الديمقراطية قد قامت منذ الأصل على تأكيد فردانية المواطن وتحريره من انتماءاته التقليدية أو الطبيعية ليكون في علاقة مباشرة مع الدولة، دون واسطات، لكن ذلك لم يكن يعني عزله عن المجتمع وعن مشاكل الآخرين.

يمكن أن نذكر عناوين أخرى عديدة في موضوع أزمة الديمقراطية، ولا شكّ أنّ تواتر العناوين يمثل شاهدا على عمق الأزمة. ورغم ذلك، لا يمكن الجزم بأنّ واحدا من هذه الكتب قد طرح بديلا مقنعا أو حلاّ عميقا للأزمة، بل الغالب فيها الوصف وإبراز مظاهر الأزمة. وعلى هذا الأساس، فإن الكتاب موضوع هذا التقديم ينخرط بدوره في محاولات تشريح الأزمة أكثر من تقديم الحلول لها. بيد أن من المهم للقراء العرب، وهم يدخلون عصر الديمقراطية، أن يكونوا على بينة من المآزق التي وصلتها هذه الفكرة في المجتمعات التي احتضنتها قبل قرنين من الآن، على الأقل كي يقع تعديل المسار منذ البداية وتنسيب العديد من المقولات والمفاهيم المرتبطة بسياقات تاريخية معينة وقد تتحوّل إلى عقائد سياسية جامدة وغير مناسبة إذا ما أسقطت على سياقات أخرى مختلفة.

اسم الكتاب: الأمراض المزمنة للديمقراطية
المؤلف: فريدريك وارمز
الناشر: باريس- ديسكلي دي برور، ٢٠١٧
اللغة: الفرنسية.

*** أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان**

التصوّف الإســـلامي
فرانشيسكو ألفونسو ليتشيزي

عز الدين عناية *

هل نستخدم دائمًا الكلمات الصحيحة والتصنيف الصحيح لتحديد وفهم العالم الراهن؟ كيف يسهم الخيال السياسي المدعوم بوسائل الإعلام في تأريخ انتقائي، وبلغة أيديولوجية تكرس مفاهيم ملتبسة ومجزأة ومحصورة لتصبح تدريجيا حقائق ومسلمات مشكلة جوهر تاريخنا المعاصر؟ هل تسهم هذه اللغة العادية، والشعبوية في كبح جماح رغباتنا الفكرية في التحرر من التاريخ الرسمي؟ يمكن القول إن هذه الأسئلة الأساسية تمثل رهانا منهجيا جذابا وجريئا لكتاب «التاريخ المضاد للزمن الراهن» لمؤلفه غابرييل روكهيل، الذي يدعو القارئ لإعادة النظر في المفردات المستخدمة عادة في مجال التاريخ.. مُذكّرا أن اللغة في عصرنا الراهن مرتبطة في أغلب الأحوال بالأيديولوجيات.

على مدى العقود الأربعة الأخيرة طغى على دراسات الإسلام في الغرب طابع اجتماعي سياسي، كانت بُغية الطلب فيه تفسير التحولات التي تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية واستشراف مصائرها. وقد صاغت دراسات الإسلام تفسيراتها للظاهرة الإسلامية وتطوراتها من خلال إرث المدرسة الاستشراقية الذي هيمنت عليه رؤية فقهية تشريعية كلامية مشفوعة ببحث مرفولوجي في منشأ الإسلام وما تخللته من أطروحات متنوعة. والملاحظ في مسار محاولات استيعاب أصول الإسلام المبكرة والتأسيسية داخل الاستشراق، بقاء الحقل الروحي أقلّ الحقول متابعةً، بموجب غلبة الرؤية المؤسساتية الصارمة على النظر للإسلام وطغيان المنظور التشريعي المنهجي في قراءة الظاهرة الإسلامية عمومًا. حتى أن مجالا مهمًا من مجالات التراث الإسلامي، ونقصد التصوف، لم يشهد اهتماما مركّزا سوى في مرحلة لاحقة، ولم يوله الاستشراق المبكّر واللاحق سوى عناية متناثرة وعابرة. ولو دققنا تاريخيا في انشغالات الاستشراق، نلحظ أن الاهتمام بالتراث الروحي الإسلامي في الدراسات الغربية قد تبلور مع لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) في دراساته المرجعية عن الحلاج والتصوف عامة، وهو متأخر نوعًا ما. مع ذلك لم يشكّل ذلك الاجتراح تحويرا في مسار النظر الغربي للظاهرة الإسلامية باتجاه مقاربات تُعنى بالتراث الروحي، ولم يحصل تطور في الاشتغال بالتصوف، سواء من ناحية تحليل المقولات الصوفية أو من ناحية نقل المصنّفات المرجعية في المجال عبر الترجمة، سوى في العقود الأخيرة.

وإيطاليا تشكّل الحلقة الأضعف في هذا الاستيعاب بصنفيه داخل الاستشراق الغربي. ومثال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي جلي في هذا السياق، فلو استثنينا مؤلف «فصوص الحكم» المترجَم من الفرنسية إلى الإيطالية، لا نعثر إلى الحقبة الراهنة على نص من نصوصه منقولا إلى اللغة الإيطالية. من خلال الكتاب الذي نتولى عرضه والذي أعده الباحث الإيطالي فرانشيسكو ألفونسو ليتشيزي، معتمدًا على نص بات مرجعاً من مراجع المدونة الغربية من تأليف جورج قنواتي ولويس غرديه، يحاول ليتشيزي صياغة مدخل عام للتصوف دون تبسيط مخلّ. ويتوجّه عبر مؤلفه إلى مخاطبة عقلية غربية بشأن موضوع ترتبط مفاهيمه ومقولاته ولغته بتراث الإسلام، مع ما في ذلك من وعورة على قارئ غربي دأبَ على فهم الدين من منظور لاهوتي مسيحي.

يشير ليتشيزي في القسم الأول من الكتاب إلى أن حضور التصوف في دراسات الإسلام المعاصر في الغرب، يأتي موسوما بدافع براغماتي وبحكم خُلقي، أن التصوف هو ذلك الجانب «الحسن» و«المقبول» من الإسلام، بوصفه روحيا ومتسامحا ومحتضنا ومحاورا، مقابل التوجه المتشدّد الذي ينفي التعددية ويرسّخ التمايز ويمقت المغاير. ولا يخفى أن القبول بالتصوف من منظور غربي، قد صيغت مبرراته في البدء وفق تهويمات ومُغالطات، أضفَتْ على الإسلام طابعا مسيحيا، وهو ما عبّر عنه مؤلف ميغال أزين بلاسيوس، المنشور في طبعته الأولى خلال ١٩٣١ بمدريد بعنوان: «الإسلام المَسْحَن.. دراسة التصوف من خلال أعمال ابن عربي المرسي (نسبة إلى مدينة مرسية الإسبانية).

لذلك انبنت نظرة تلحق التصوف الإسلامي بالتراث المسيحي، عمادها أحكام مستعجلة كون «المظاهر الناعمة» المشوبة بالمحبة واللطف، والتي نجدها طاغية في مقولات التصوف، هي مما يلائم روح المسيحية وتعاليم الإنجيل، ولكن سرعان ما جرى التخلي عن هذه الأطروحة غير العلمية والمفتقرة إلى الأسس المنهجية أمام تبيّن أن المقاصد العليا للتصوف تتماهى مع المنظور الإسلامي وهي مستنبَطة من جوهر الدين المستند إلى الكتاب والسنة (ص: ٨٧). والجلي أن تلك النظرة الإلحاقية للتصوف الإسلامي بالمنظور المسيحي قد تبلورت بفعل الرؤية الاستشراقية الكنَسية المغالية، التي هيمنت على الدراسات الإسلامية الغربية المبكرة، وهي رؤية مركزية شهدت زعزعة لأركانها مع مدرسة ما بعد الاستشراق التي يبقى من أبرز أعلامها الراحل إدوارد سعيد.

في القسم الثاني من الكتاب يحاول الباحث ليتشيزي تحديد العوامل التي جعلت الأوساط الغربية المهتمة بالحضارة الإسلامية تنحو صوب الانشغال بالتصوف. فبالتوازي مع التوتّر الذي أجّجه «الإسلام الجهادي» وما خلّفه من أثر عميق على انشغالات الباحثين ومواقفهم، لم يجد شقّ من دارسي الإسلاميات من سبيل لتجاوز ذلك المأزق الابستيمولوجي سوى بطرح التصوّف الإسلامي بديلا دراسيا. فليس التصوّف نهجا لتغيير ظواهرية الحياة بل هو مسلك ذوقي لتنقية البواطن، فهو من الصنف المُرضي عنه، ولا يُمثّل تهديداً. ينضاف إلى ذلك أن التوجّه إلى العرفان الإسلامي يأتي نتاج دخول براديغمات جديدة في التعاطي مع الشأن الديني، تتفسّر ضمن مقولات سوسيولوجيا الدين الأمريكية المتلخصة في طروحات «السوق الدينية»، أي محاولات المتحكّمين بالمجال الديني تحويل قطاع الرّوحانيات إلى بضاعة استهلاكية منتزَعة من سياقاتها الدّينية والفلسفية. ليأتي الشغف بالتصوف من خارج النسق الرّوحي المعهود، في مسعى للاقتراب من آثاره ووعوده التي عبّر عنها إبراهيم بن أدهم في ذلك القول المأثور: «لو علم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه». ولعل كثرة انتشار نوادي اليوغا والتأمل والرّياضات الروحية، غير المجانية، موحية ضمن هذا المستجد بالغرب. وبالفعل بدا التصوّف مغرياً لفئات من الغربيين، تُكتشف عبره سماحة الإسلام رغم ضخّ إعلام الفوبيا الهائل (ص: ١٠٣).

ولا يحصر الباحث الإيطالي ذلك الانجذاب في حدود التصوف الإسلامي، بل يحشر الأمر ضمن إطار روحي عام يشمل تقاليد شرقية أخرى. يفسّر عالم الاجتماع الإيطالي ستيفانو آلياني ذلك ضمن «موجة الموضات الروحية» الشرقية التي تجتاح الغرب. فأزمة المعنى التي تعاني منها

المسيحية الغربية، والتي خلّفت فتورا وانتقالا للناس من «الاعتقاد والانتماء» إلى «الاعتقاد دون انتماء»، كما عبّرت عن ذلك الدارسة الإنجليزية غرايس دافييه، فقد ولّدت بحثا عن الرّوحي في مختلف التجارب الدّينية، في البوذية والطاوية والحاسيدية اليهودية والنيو آيج (العصر الجديد) والنحل المسيحية البنتكوستالية، مع ميل واضح نحو التقاليد الباطنية. وفي ذلك المسعى لا تغري الغربي المؤسّسة الدّينية المغايرة بهيكلها الصارم، بل جانبا معيناً من إرثها الديني، يجد معه المرء انسجاماً، وقد تتقلص منه أحيانا مراعاة الطقوس، ليصوغ السالك بشكل ذاتي دربَه في حِلّ من ضوابط المؤسسة أو التقليد الديني الصارم.

فقد صار السالك نحو تجربة جديدة يرسم صلاته بمخزون الآخر الروحي ضمن منطق وجْدي ذوقي، متخفّف من مستلزمات الانتماء. يصف فريدريك لونوار ذلك الكلف الروحي في بحث بعنوان «الروحانيات الشرقية في الغرب» ضمن «موسوعة الأديان» (١٩٩٧، ص: ٢٣٨٣): «الطرق الصوفية أساسا هي ما يجذب الغربي، وأشهرها حركة الدرويش الدوّار برقصته الفاتنة الذائعة الصّيت، وهو ما يفضي بالمريد إلى بلوغ الوجد الرّوحي. حيث تعرض تلك الطرق نفسها سبيلا أصيلا يعبّر عن روح الإسلام. فتعاليم الصّوفية تجذب الغربيين بفعل خاصيات ثلاث: سَهرُ معلّمين روحيين عارفين على تبليغها، عدم إهمالها حركات الجسد المشفوعة بالترانيم الروحية، تجمعاتها المتحمّسة والنشيطة».

وبالتالي ترافقت موجة الانجذاب للتقاليد الروحية مع هدوء نسبي في دراسات الإسلام الحديثة، تراجعت منها تلك النظرة المتوترة والعصابية التي غالباً ما تحكمت بمقاربة الدارس الغربي لقضايا الإسلام. ولكن الجلي في المنظور الغربي أن الطُّرق الصوفية في بلاد الإسلام غالباً ما تمّ عرضها ضمن مقاربة الأقليات الدينية التي تبقى عرضة للتضييق والاضطهاد من قِبل الأغلبية، التي يمثلها التيار السني تيار الأكثرية.

في القسم الثالث من الكتاب يرصد ليتشيزي بقاء التصوف المدخل الأكثر إغراء للآخر الغربي، بما انعكس على تطور نسيج من الجمعيات الصوفية تجد في السكينة الروحية وفي الترانيم الروحية وفي المنزع الباطني عناصر جاذبة. ونظرا لطابع التخوم العقائدية الرّخو داخل هذه التجمعات، يجد المنضوي ألفة مع العائلة الجديدة ومحافَظة على إرثه السالف. هذه المزاوجة بين هويتين، سالفة وراهنة، تجعل «المهتدي الغربي» عبر هذه الطرق أقرب إلى التديّن المنفتح الذي تتقلّص منه الحدود الفاصلة. فعادة ما يدخل المهتدون الإسلام عبر الطريقة الصوفية وليس العكس، ما يجعلهم يحتفظون بضيق الرؤية وقلّة منهم من تهجر ذلك المدخل الأوّلي. ولعل الملاحظ مع هؤلاء أن قليلاً منهم من يرتاد المصلّيات في الغرب، هذا إن لم نتحدث عن فتور مفهوم الانضباط الشعائري بينهم.

صحيح أن الصوفي ابن عربي بمقولاته الفاتنة يثير إغراء كبيرا بين شرائح غربية مثقفة تلج باب التصوف، ولكن يبقى تأثير الفرنسي رينيه غينو (١٨٨٦-١٩٥١م) لافتا

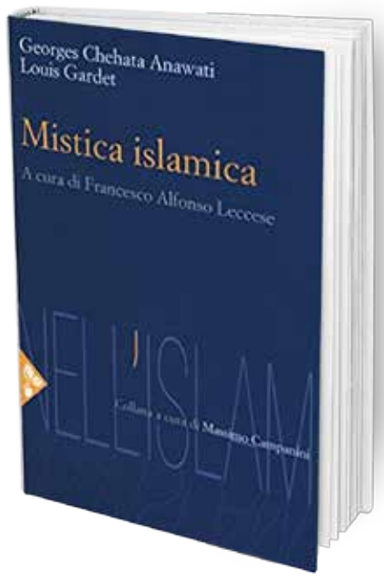

أيضا في أوساط المحافل الصوفية الغربية. فغينو من ذلك الصنف الآسر، لا سيما في أوساط المولَعين بالمدخل الرمزي والباطني الذي يلحّ عليه. فنهجه يُعدّ مؤثرا في المجال بما تخلّله من تجوال بين تقاليد روحية كونية، تراوحت بين المسيحية والهندوسية والطاوية والبوذية وغيرها، إلى أن انتهى به المطاف عند التقليد الروحي الإسلامي الذي وجد فيه ضالته (ص: ١٨٧).

في القسم الرابع والأخير، يبرز مؤلّف ليتشيزي بقاء روح التصوف مستشرية في أرجاء العالم الإسلامي وغير متأثّرة بتسرب مظاهر الحداثة، ولعلّ تلك الروح تكشف عن قدرة التصوف على التعايش مع مستجدات الحياة رغم التطورات الهائلة التي مسّت أنماط العيش. وفي تتبع مسارات الطرق الصوفية عبر مختلف الأوضاع السياسية والاجتماعية، يبيّنُ الكتاب أن التيار الصوفي ما كان بمنأى عمّا تطفح به الأوساط الاجتماعية من إشكاليات قد تبدو أحياناً بمنأى عن انشغالاته، وإن قاربها التصوّف على نهجه واختار فيها استراتيجيا حوارية مسالمة. فنمط عيش المرابطين في الرباطات في بلاد المغرب، المتميز بالزهد والورع ولعب دور دفاعي عن الثغور بقصد الذود عن دار الإسلام، هو شكل من أشكال المزاوجة بين الروحي والعملي. وبالمثل ما ساد في الفترة الحديثة مع حركة الزوايا في الجزائر أو مع أتباع السنوسية في ليبيا أو مع المهدوية في السودان، هو بالأصل شكل من أشكال المقاومة للاستعمار، هدف للحفاظ على هوية الأمة. لذلك ليس التصوف من المنظور الإسلامي عزلة بالمعنى السلبي أو انزواء عن مشاغل الناس بل هو انخراط هادئ (ص: ٢٣٠).

يحاول ليتشيزي في هذا القسم إقامة مقارنة بين التصوف الإسلامي ونظيره المسيحي، فيلمّح إلى فروقات مهمة بين التجربتين الروحيتين. صحيح أن ثمة مشتركات من حيث التطلّع إلى الفناء في محبة الله، ولكن الرموز الحاضرة في التصوّفيْن تبدو متباينة أحيانا، ولا شك أن تبني العزوبة والنفور من الزواج في التصوف المسيحي هي مما لم يلق هوى في التصوف الإسلامي، كما أن التقنيات الموظَّفة في التجربتين تتغاير من حيث المغالاة والحدة. ففي تقليد التصوف المسيحي، كما يبرز صاحب الكتاب، نجد إجحافا في اختراع سُبل لإنهاك الجسد: مثل تقليد الرهبان «أكلة النباتات» (boskoi) ممن كانوا يهيمون في الصحارى كالأنعام، أو «الشجريون» الذين اتّخذوا من الأشجار سكناً، ولعل أبرز هؤلاء «العموديون»، الذين تنحدر تسميتهم من العبارة اليونانية (stylos)، أي العمود، فقد كان هؤلاء الرهبان المنعزلون فوق الأعمدة على علو شاهق، غرضهم أن يسلكوا درْب الزهد. وهي ممارسة نشأت في المشرق بمبادرة من القدّيس سمعان الكبير، الذي صعد فوق عمود قرب أنطاكية عام ٤٢٢م وظل هناك حتى وفاته عام ٤٥٩. لم تخل تجارب التصوف في الإسلام من الغلوّ والغرابة أيضًا، لكن المناخ العام بقي محكوما بميزان لا رهبانية في الإسلام، كما أن العزوبة لم تجد قبولا واسعا بين هؤلاء المنقطعين للعبادة، نظرا للحثّ القوي في الإسلام على بناء أسرة وعيش حياة متوازنة. وبالتالي يتعلق الأمر في التجربة الروحية الإسلامية بنوع من التصوف المنغمس في الحياة، وهو ما نجده في النزعات الروحية التي تزاوج بين الشغل المعيشي والمسلك الروحي، دون إفراط ولا تفريط، حتى أن دارسا من الدارسين الغربيين، أليساندرو باوزاني، في مقارنة أبعاد التدين في الشخصية المسلمة والشخصية الغربية المسيحية، يخلص إلى أن المنزع الروحي الشائع في الأوساط الإسلامية هو ما يشكل الأسّ الذي تقوم عليه الشخصية المسلمة، فالتصوف من منظوره «هو عبارة عن سموّ بالإنسان المؤمن بما يجعل الحياة الفردية أو الجماعية مفعمةً بجوّ من الشفافية الروحية» («الإسلام.. الدين والأخلاق والممارسة السياسية»، ص: ٨١).

إن تكن مضامين الكتاب تتوجه بالأساس إلى القارئ الغربي، في موضوع على صلة بجانب من جوانب الثقافة الإسلامية، فهي تقدّم أيضًا إطلالة عن تطورات الظاهرة الصوفية في الغرب وأهم ملامحها. تضمّن الكتاب جملة من الملاحق فضلاً عن فهارس عنيت بالمراجع والأعلام والمصطلحات الصوفية، وهو ما أضفى على الكتاب طابع الدراسة العلمية المتكاملة.

نبذة عن المؤلف: فرانشيسكو ألفونسو ليتشيزي باحث جامعي إيطالي متخصص في التصوف الإسلامي. يدرّس في جامعة الدراسات العالمية بروما. فضلاً عن الكتاب الذي نعرضه صدر له مؤخرا بحث آخر بعنوان: «الصوفيون على الإنترنت.. الطرقية بين العولمة والتراث» (٢٠١٧).

الكتاب: التصوّف الإسلامي.
إعداد: فرانشيسكو ألفونسو ليتشيزي.
الناشر: جاكا بوك (ميلانو) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٧.
عدد الصفحات: ٣٦٨ ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

الصهيونية الدينية: التاريخ، الفكر، المجتمع لدوف شفارتز

فوزي البدوي *

كثيرة هي الكتب في اللغات الأجنبية التي خصصت لقصة الصهيونية الدينية المثيرة للاهتمام والتي عرفت على يد الربي أبراهام كوك منذ بداية القرن العشرين زخمها الكبير؛ فقد جرت العادة أن ينظر إلى الصهيونية تاريخياً باعتبارها حركة علمانية مناهضة لليهودية التقليدية أو الأرثوذكسية، وتجد جذورها الفكرية في الهاسكالاه اليهودية في القرن الثامن عشر، إذ قدمت إجابة مغايرة للمسألة اليهودية كما نظرت إليها اليهودية الإصلاحية بزعامة موشيه مندلسون والداعية إلى الاندماج في ألمانيا وأوروبا عمومًا وامتلاك صفة «المواطنة» بكل ما تقتضيه ومحاولة تجديد اليهودية من داخلها، مما وجد تعبيره الأكبر في ما عرف بوثيقة بيتسبورغ الأمريكية سنة ١٨٨٥ واليهودية الأرثوذكسية التي رفضت الاندماج المؤذن بخراب اليهودية في اعتقادها والمؤسس حتمًا للانصهار والذوبان وفضلت الانكفاء داخل عقلية الجيتو الانعزالية وإن بفوارق ودرجات مختلفة بحسب الظرف والمكان.

وكانت هذه الصهيونية في بدايتها من اقترح وجود طريق ثالث وهو الخروج من أوروبا مطلقاً والبحث عن حل جذري يتمثل في تأسيس دولة لليهود وليس دولة يهودية كما يظن لأول وهلة في قطيعة خطيرة مع الأسس الماشيحانية التي اعتنقتها اليهودية الأرثوذكسية، والتي تعتبر قيام دولة لليهود مسألة «إلهية، يقررها إله إسرائيل وحده مثلما نصت عليه نصوص كثيرة من التلمود البابلي، وهو رفض نجد آثاره حتى اليوم بين بعض طوائف الحريديم اليهودية حتى وهي تتخذ من إسرائيل مستقرا لها. وهذا التعارض هو ما وفق الباحث يعقوب رابكين في توضيحه في كتاب يظل مرجعًا في بابه.

ولكن هذه المرحلة لم تدم طويلا بعد نشوء حركة مزراحي التي لم تكن ترى تعارضا بين الصهيونية واليهودية، وهي حركة يهودية حداثية تأثرت بالثورة البورجوازية التي عرفتها أوروبا الشرقية والوسطى. وكان المُنظر الذي تمت على يديه هذه التوليفة هو الربي أبراهام إسحاق يهودا كوك أول أحبار إسرائيل الاشكناز في السنوات الثلاثين والذي جعل من الصهيونية جزءًا من اللاهوت اليهودي وحركة منخرطة في مسار الماشيحانية اليهودية التقليدية تحضر لعودة الماشيح اليهودي المنتظر، وهو ما مكن بالتالي كل اليهود المترددين من الانخراط في الصهيونية. وهذه الحركة التي بدت قليلة العدد في الثلاثينات هي الحركة أو التيار الذى يجب أن يحسب له العرب والمسلمون حساباً وألف حساب في العقود القادمة لأن توجه إسرائيل نحو اليمين الديني لم يعد خافيًا على أحد.

ولهذه الشخصية المهمة بالأساس ولاثنتين أخريين هما يعقوب راينس ويوسف سولوفيتشنيك خصص هذا الكتاب المعنون بـ«الصهيونية الدينية: التاريخ، الفكر، المجتمع». وهو في الحقيقة مجموعة من المساهمات أشرف عليها الباحث الإسرائيلي دوف شفارتز والصادر في أكتوبر ٢٠١٧ من خلال معهد زارح لدراسات الصهيونية الدينية وهو ينقسم إلى ثلاثة أبواب خصص أولها للتاريخ والمجتمع، وفيه دراسات كل من يوسف سلمون حول يعقوب راينس: ملامح زعيم صهيوني ديني، وهو مقال درس فيه هذا المؤرخ الحركة الصهيونية الدينية سيرة وآثار من يُعتبر مؤسس حركة مزراحي الحقيقي بعد أن احتضنته في البداية حركة أحباء صهيون. وفيها تعرف على صموئيل موهيليفير صاحب مشروع الاستيطان في فلسطين تطبيقا لمبدأ الجمع بين التوراة والعمل العبري ومن إليه يرجع أصل تسمية حركة مزراحي وهي اختصار لعبارة «مركز روحاني» תנועת המזרחי

وفي هذا الكتاب أيضاً دراسة عن إحدى أهم الشخصيات التي طبعت الصهيونية الدينية والتي لا نجد مع الأسف دراسات عنها في اللغة العربية وهي شخصية الربي يهودا كوك بقلم حنا ناثان ريقلين عن مقاومة أتباع الربي زيفي يهودا كوك لمسألة فك الارتباط أو الانسحاب من غزة תוכנית ההתנתקות وأجزاء من الضفة التي خصص لها موتي اينباري في غير هذا السياق دراسة مهمة ثم خصص القسم الثاني من الكتاب لمحور الفكر اليهودي، وفيه درس دوف شفارتز نفسه وهو المشرف على كتاب العبقرية الدينية في فلسفة الربي كوك معتبرا إياه في عنوان فرعي للدراسة قديسا قوميا. أما القسم الثالث من الكتاب فاهتم بدراسة أرشيف معهد الدكتور زارح للأبحاث حول الصهيونية الدينية وفي هذا القسم كشف دوف شفارتز الغطاء من خلال الأرشيف عن ثلاثة مواضيع هي على التوالي: رسالة الربي يوسف سلوفوتشيك حول الأرثوذكسية الحديثة والثانية حول بعض القراءات التي قدمت في منظمة مزراحي النسوية ثم رسالة الدكتور يوسف بورغ حول تعيينه حبرا وهي الرسالة التي أمضاها الربي يحيال يعقوب فاينبرغ.

والحقيقة أن الباحث دوف شفارتز هو أحد القلائل مع موتي اينباري ممن اهتم بالصهيونية الدينية وقد كرس وقته وجهده لدراسة هذه الصهيونية الدينية، وكتابه هذا ليس الأول في بابه فقد كان له السبق في إصدار مؤلفات أخرى أساسية لمن يريد التخصص وفهم هذه الحركة المهمة التي يستحيل بدونها فهم اليهودية المعاصرة والصهيونية والصراع العربي الإسرائيلي ومستقبله إذ سيكون لهذه الحركة دور مهم جدًا فيما سيحدث في العشرية القادمة ومن هنا جاءت أهمية تقديم هذا الكتاب للقراء العرب.

لقد خصص دوف شفارتز من قبل كتابين مهمين باللغة العبرية بعنوان الصهيونية الدينية في مائة عام מאה שנות ציונות דתית خصص الأول مائة سنة من الصهيونية الدينية - الشخصيات والمناهج מאה שנות ציונות דתית - אישים ושיטות والثاني مائة سنة من الصهيونية الدينية - الجوانب التاريخية מאה שנות ציונות דתית - היבטים היסטוריים وخصص كتابا ثالثا بعنوان الصهيونية الدينية: التاريخ وفصول في الأيديولوجيا הציונות הדתית: תולדות ופרקי אידיאולוגיה.

وتعتبر مسألة الانسحاب من غزة وبعض أجزاء الضفة الغربية سنة ٢٠٠٥ مسألة بالغة الخطورة بالنسبة للصهيونية الدينية والمتدينين الصهاينة أكثر من أية قطاعات أخرى في المجتمع الإسرائيلي ويهود العالم؛ بسبب أن أغلب المستوطنين هم من الصهاينة المتدينين وقد نبه دوف شفارتز إلى تأثير هذا الانسحاب على هذه الفئة من المجتمع الإسرائيلي في هذا الكتاب وفي غيره من خلال رصد مواقفها والإشارة إلى ارتباط ذلك بمسائل العقيدة الدينية وغيرها مثل الدولة والعرب

الفلسطينيين إلخ.

والحقيقية أن هذا الانسحاب قد أحدث جرحا بالغا في وعي جماعات اليمين الديني المتشدد فهؤلاء المنحدرون من فكر الربي يهودا كوك يعتقدون كما اعتقد هو عندما كتب عن قداسة إسرائيل وأرضها أنه «يجب أن نتذكر لمرة واحدة وإلى الأبد أن ما هو مقدس مقدس! [...] وأن دولة إسرائيل والنظام الذي عليه حكومتها هما أيضا مقدسان. بل إن كل ما يرجع إلى تنفيذ هذه الأحكام، بل وجميع الدبابات والأسلحة الأخرى والذخائر [...] - كلها تنتمي إلى هذه القداسة التي تميز أرض إسرائيل «.

كانت أزمة الصهيونية الدينية ممثلة في حركة غوش أيمونيم وغيرها هي التساؤل كيف يمكن اعتبار الدولة التي تقتلع المستوطنات وتسلم أجزاء من الأرض التي قدستها التوراة إلى الحكم العربي «مقدسة تماما؟» بل أي معنى ديني يمكن أن يضفي إلى أعمال هذه الدولة العلمانية التي تظن أنها تحسن صنعًا بينما هي لا تدرك أن هدفها الأساسي المفروض أن يجعل منها بمثابة «أساس عرش الله في العالم»، هي من تقوم بتدمير نفسها بنفسها بل وتدمر من وراءها كل ذلك الأمل المشيحاني الذي هو جوهر التبرير الذي يقبل من خلاله الربي كوك بالصهيونية ومن ورائه كل التيارات الدينية الأرثوذوكسية الكلاسيكية «ولهذا السبب بالذات أطلق البعض على هذا الانسحاب العبارة اليهودية «.

لقد رفضت التيارات اليمينية المنحدرة من الصهيونية الدينية من قبل مبدأ التنازل عن أي جزء مما تعتبره أرض إسرائيل الكاملة «هاشليماه» وأقدمت على ارتكاب المحظور منذ سنة ١٩٩٥ باغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين سنة ١٩٩٥ اعتمادا على فتوى دينية هي فتوى «دين روديف» و «دين موسير» المضمنتين في نصوص الربي موشيه بن ميمون في كتابه «مشنيه توراة» ولكن الخطر لم يأت هذه المرة من شخصية «علمانية» بل من شخص أرييل شارون المحسوب على اليمين القومي القريب من الأوساط الدينية المتشددة ولم تكن فتاوى الربي أبراهام شابيرا أو موردخاي الياهو إلا تعبيرا عن هذا المأزق الذي عاشته الأوساط المنحدرة من فكر الربى كوك الذي ظن أنه وجد طريقاً لاعتبار الصهيونية الجناح الذي سيحمل الماشيحانية نحو صيغة اكتمالها.

كما اهتم الباحث دوف شفارتز في القسم الثالث من العمل بالكشف عن بعض محتويات الأرشيف الخاص بمعهد زارح للدراسات حول اليهودية الصهيونية המכון לחקר הציונות הדתית ע"ש ד"ר זרח ורהפטיג وكشف عن رسالة مهمة للربي يوسف سولوفيتشنيك יוסף דוב הלוי סולובייצ'יק عن الأرثوذكسية الحديثة وأعتقد أن هذه الرسالة من النصوص المهمة التي تجب دراستها والتوسع في فكر مؤلفها المجهول لدى القراء العرب تقريبًا وذات التأثير العميق في اليهودية

المعاصرة فهذا الربي المنحدر في الأصل من أصول روسية حيث ولد سنة ١٩٠٣ والمعروف اختصارًا بـ«زاتسال» وقضى سنوات تكوينه الجامعي في برلين عاصمة الثقافة اليهودية حيث أكمل دراسته سنة ١٩٢٦ وفيها تعرف فكرياً على اثنين من كبار مفكري اليهودية الأرثوذكسية في القرن العشرين ممن سيكون لهما أكبر التأثير الروحي في اليهودية العالمية وهما الربي مناحيم ماندل شنيرسون آخر عنقود سلالة اللوبافيتش الحسيدية والربي يتسحاق هوتنر أحد زعماء اليهودية اللتوانية في الولايات المتحدة لاحقًا. وحين أنهى أطروحته عن فلسفة اليهودي هيرمان كوهين كانت قد بدأت تتشكل ملامح فكره وفلسفته التي عبَّر عنها فيما بعد فيما سماه «التوراة والعلم» תּוֹרָה וּמַדָּע وطبق ذلك من خلال جامعة يشيفا التي ترأسها والده من قبله، وتقوم على فكرة أو ضرورة أن يجمع اليهود الأرثوذكس تكوينا علمانيا متينا في الجامعات العلمانية كما فعل هو في جامعة برلين بل إنه ذهب إلى أنه لا يجوز إعطاء أية صفة دينية סמיכה לרבנות ليهودي أرثوذكسي يصير بموجبها من الربيين اليهود ما لم يتحصل قبل ذلك على تعليم تخصصي في أحد فروع المعرفة الدنيوية الحديثة في الجامعات غير الدينية. وهو في ذلك يختلف جذرياً عن الربي صموئيل هيرش اليهودي الأرثوذكسي الذي سعى إلى التقريب بين اليهود والثقافة الأوروبية الحديثة ولكن سولوفيتشنيك لم يكن يسعى في حقيقة الأمر إلى مجرد التقريب بل كان يرى في هذه الثقافة الأوروبية الألمانية حجر الأساس في اليهودية الحديثة وليست مجرد شر لابد منه كما رأى آخرون من قبله بل لم يكن يرى فيها تهديدا للثقافة اليهودية وإنما فرصة نادرة للتجدد والحياة. واعتبر رجال الدين اليهود الذين كونهم وفق هذا المبدأ بمثابة جيل الأوائل أو الريشونيم من يهود إسبانيا السفارديم كما يطلق على جيل ابن ميمون وابن عزرا ويهودا اللاوي. وقد بسط كل هذه الآراء في كتاب شهير أشار إليه الباحث دوف شفارتز في دراسته هذه وهو كتاب «المؤمن المتوحد».

لم يكن الربي يوسف سولوفيتشنيك وهو الربي الأرثوذكسي يرى تنافياً بين اليهودية والحداثة وبين العقلانية والدين وخصوصًا بين الصهيونية واليهودية وهو موقف على غاية من الأهمية بالنظر إلى أنه كان في بداية حياته قريباً من التصورات الأرثوذكسية المناهضة للصهيونية؛ فقد كان إلى حدود الحرب العالمية الثانية ضمن مجلس كبار علماء التوراة الذي يشرف على حركة أغودات يسرائيل المناهضة للصهيونية، ولكن المحرقة النازية غيرت فكره حوالي ١٨٠ درجة حول الصلات بين اليهودية والصهيونية. ظهر ذلك جليًا في انضمامه إلى الفرع الأمريكي لحركة مزراحي، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، منسلخا عن تقاليده العائلية مثلما عبر عن ذلك في كتابه «الدروس الخمسة حول ارتس» חמש דרשות על ארץ ישראל وشبه العلماء اليهود مثله المنضوين تحت لواء الصهيونية بمنزلة يوسف ذلك النبي الحالم الذي عارضه إخوته فاختلفت بذلك منطلقاته عن منطلقات الربي يهودا كوك ذات البعد المشيحاني ومنطلقات الفيلسوف المشاكس يهوشواع ليبوفيتش.

إن هذا الكتاب الذي جمع فيه دوف شفارتز طائفة من النصوص المتصلة بالصهيونية الدينية ممثلة بأهم أعلامها لا يمكن أن يقرأ منفصلاً عن مؤلفاته الكثيرة ومقالاته المتعددة حول هذ التيار الأساسي في تاريخ اليهودية والصهيونية سواء بسواء، والذي اختص فيه مؤلفون آخرون. وسيغنم القراء العرب والسياسيون وأصحاب القرار بالاطلاع عليهم لأنني أزعم أن هذا التيار الصهيوني الديني هو الذي سيشكّل في مستقبل السنوات صورة الصراع العربي الإسرائيلي وخارطة النزاعات الدينية السياسية في الشرق الأوسط؛ فإسرائيل تنزع نحو اليمين الديني رويدا رويدا ولكن دون رجعة؛ فالصحوة الدينة التي بدأت منذ نكسة ٦٧ وعبر عنها اليهود باسم حازاراه بتشوفا صارت مهددة بألا تؤدي إلى ما تعبر عنه هذه الأوساط ببداية لخلاص: «هاتخيلات هجيءئولا « התחלת הגאולה بفعل النزوع إلى التسويات السياسية المرفوضة التي تمس بقداسة إسرائيل وأرضها فيما يدعون.

الكتاب: الصهيونية الدينية: التاريخ، الفكر، المجتمع
المؤلف: دوف شفارتز
دار النشر: مطابع جامعة بار ايلان
اللغة: العبرية
عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحة
تاريخ النشر: أكتوبر ٢٠١٧

× أستاذ الدراسات اليهودية الجامعية

الموجةُ الرابعةُ آتيةٌ
لتشوي هيون شك

محمود عبد الغفار *

تمثل الفاشية وصفا تاريخياً لتجارب حركات قومية أو وطنية، ونظم أسستها تلك الحركات، تبلورت عبر تجارب سياسية خاضتها عدد من بلدان أوروبا في فترة ما بين الحربين العالميتين لتصل إلى شكل أيديولوجي واع بذاته، سعت الحركات الفاشية لتوحيد الأمة التي ينتمون لها عبر الدولة الشمولية، وتميّزت بحركات تهدف إلى إعادة تنظيم المجتمع وفقا لمبادئ متسقة مع الأيديولوجية الفاشية. تتميز الحركات الفاشية بملامح مشتركة تتضمن تبجيل وهيبة الدولة، والحب الشديد لقائد قوي، والتشديد على التعصب الوطني والعسكرة. ترى الفاشية في العنف السياسي والحرب والسطوة على أمم أخرى طرقاً للوصول لبعث ونهضة وطنية. ويقر الفاشيون برؤيتهم أن الأمم الأقوى لها الحق في مد نفوذها بإزاحة الأمم الأضعف.

«الموجة الرابعة آتية» حلقة من سلسلة كتب ذات توجهات جديدة تتخذ منحى التنبؤ بالمستقبل على أساس علمي بحت في مجالات السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا بحلول عام ٢٠٣٠م. وقد سبقته كتب أخرى ناقشت الأوضاع والتحديات المُستقبلية بحلول العام سابق الذكر نفسه. أما الموجة الرابعة فتعني الثورة التكنولوجية الرابعة التي تشهدها الصناعة في العالم؛ تلك الثورة التي تحدث تغييرات عميقة وتفتح مسارات جديدة في الصناعة تحمل عنوان «الثورة الذكية» في عصر يمكن تسميته «الرأسمالية الفردية». وهنا يطرح المؤلفان تساؤلات من قبيل كيف يمكن الانتفاع بالذكاء الاصطناعي في ظل هذا التنافس التكنولوجي الرهيب؟ كما أنهما يتنبآن بأنَّ الثروات الفردية ستزداد طبقًا للقدرة على الانتفاع بالتكنولوجيا الذكية. التحول الأخطر والأهم هنا هو ثورة الانتقال من رأس المال بالمعنى التقليدي إلى رأس المال الفردي في ظل الاتصال العالمي أو الكوكبي المرتكز على الذكاء الاصطناعي عبر شبكة الإنترنت. يكشف المؤلفان كذلك عن أنّ الثورة الصناعية في موجتها الرابعة عليها أنْ ترتكز على الفرص العظيمة للثراء بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية.

في ظل الموجة الرابعة، على نحو ما يرى المؤلفان، علينا أن نغير تصوراتنا عن المُستقبل، وأن نكون موضوعيين بحيث يمكننا رؤية التغييرات الجارية والتي ستحدث مستقبلاً. علينا أن نفكر في الفرص المتاحة التي يحملها الغد القادم بدلاً من القلق والتخوف منه. فجوهر الاقتصاد والثروات يتحرك الآن بشكل مغاير لأن بنية النشاط الاقتصادي نفسها قد تغيرت وكذلك الحال بالنسبة لأدوات الاستثمار وفرصه. وسط كل هذا علينا أن نجهز أنفسنا بالتخطيط والشروع في التنفيذ بدلاً من الانتظار والتحرك كرد فعل. علينا أن نُدرك هذه التغيرات الأساسية لأنها فرصة لا يجب تفويتها. لقد تم توظيفنا جميعًا في ظلّ الرأسمالية التقليدية وجميعنا كنَّا أدوات لم يُسمح لها بتحقيق الثروات الشخصية. هذا الأمر تغير مع الموجة الرابعة من الاقتصاد الذكي. لم يعد أيٌّ منا أداة بل أصبحنا جميعًا نمتلك الفرص للاستثمار الفردي وتحقيق الثروات. هل يمكن تحقيق هذا ونحن لا نملك الأموال الكافية للاستثمار؟ ونحن لسنا من أصحاب المصانع والشركات؟ الإجابة التي يطرحها المؤلفان هي «نعم». فهناك فرص كثيرة متاحة وكل ما علينا فعله هو استغلال الظروف المُستقبلية على الوجه الأمثل. وهنا يتوقف المؤلفان عند خمس مراحل: التعاون مع الذكاء الاصطناعي. - تنظيم الوقت بطريقة جديدة. - التمتع ببصيرة جيدة للتعرف على الإنسان من الداخل بغض النظر عن سلبيات هذا الإنسان ونواقصه ورغباته ومشكلاته. - أن تتسم هذه البصيرة بالقدرة على التخيل. - القدرة على أن يجد المرء أريحية بين الجانب الإنساني وجانب الآلة أو الميكنة التي تسيّر كل شيء في ظل الذكاء الاصطناعي غير المسبوق.

تشوي هيون شك، وهو أحد مؤلفي هذا الكتاب، يعد واحدًا من اختصاصيّ الدراسات المستقبلية. له ثلاثة مؤلفات تدور كلها حول بلوغ عام ٢٠٣٠م بعنوان «مستقبل جريء»، و«تحديات جريئة»، و«خريطة مستقبلية للثروات». درس في جامعة «هوستن» علي يدي «بيتر بيشوب» و«كريستوفر جونز»، و«وندي سكولتز»، كما درس الاقتصاد والأخلاق والفلسفة واللاهوت، وقد صار أصغر الاختصاصيين الذين لفتوا الانتباه في الدراسات المستقبلية في كوريا بل وفي آسيا كلها، وخاصة ما أذاعه حول «سيناريو حرب الهيمنة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين»، و«مستقبل الصين» و«إحياء أمريكا الجديد عام٢٠٢٠م»، و«مستقبل سامسونغ»، و«الأزمة الكبيرة في آسيا». هو المدير الحالي لمعهد الدراسات الإنسانية المستقبلية وعضو جمعية «اختصاصيّ الدراسات المستقبلية المحترفين»، وعضو جمعية «استراتيجيات المستقبل». أما أهم الكلمات المفتاحية الأساسية في خطابه ودراساته القيمة عن تقنيات التنبؤ بالمستقبل، وإستراتيجيات الإدارة المستقبلية، ولعبة الحرب والهيمنة، فهي «البصيرة، المستقبل، الابتكار والإبداع، الإعداد الجيد، حسن استغلال الفرص، البحث عن الفرص وسط الأزمات».

يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام تغطي الأزمات الاقتصادية في كوريا والصين، والتنبؤات المستقبلية لتجاوز تلك الأزمات في أسرع وقت ممكن. صحيح هي أزمات لكنها يمكن أن تكون فرصًا متاحة نحو استثمارات ذكية جديدة. كما تُغطي هذه الأقسام أيضًا قراءة في مخططات الرئيس الأمريكي «ترامب» واستراتيجياته السياسية والاقتصادية. يأتي القسم الأول تحت عنوان «موجة حرب رأس المال». يُفتتح هذا القسم بتوجيه طلب أو نصيحة بضرورة الاستعداد لحرب الهيمنة القادمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين. وضرورة استدعاء التاريخ، فالصين نفسها عايشت نظمًا استعمارية لآلاف السنين. لو تذكرنا هذه الحقيقة فسوف نستوعب أو نتنبأ بسهولة بالحلم

الصيني. ففي الوقت الذي تريد فيه أمريكا بسط الهيمنة تقوم الصين بالتهديد، فضلاً عن أنّ الصين تريد استعادة دورها المهيمن الذي لم يكن تحت النفوذ العسكري الأمريكي. صحيح أن «ترامب» يقوم بتنفيذ مخططات الحماية الاستباقية لأمريكا، ولكن الصين قد شرعت في اتخاذ تدابير وقائية لحماية نفسها منذ عام ٢٠١٢م. ثم يتطرق هذا القسم لعدد من النقاط مثل؛ حرب رأس المال قد بدأت للتو، وخلال عام ٢٠١٧م سيبدأ الجزء الثاني من هذه الحرب، وقراءة في أساليب ترامب ومخططاته وأهدافه الثلاثة: النمو، والهيمنة الاقتصادية، والهيمنة العسكرية، وكذلك قراءة في جوهر الاستراتيجيات الاقتصادية لديه، وما سيحلّ بكوريا جراء تلك الاستراتيجيات. فسيحدث تقليل في الإنفاق الحكومي في البلاد، كما سيحدث خفض للضرائب. ستحدث أزمة اقتصادية كتلك التي شهدها العالم في ٢٠٠٨م ولكن هذه المرة في الصين وذلك بحلول ٢٠٢٠م. في الفصل الثاني من هذا القسم تحت عنوان «عودة الدولار القوي». يرى المؤلفان أنه قد تخسر الشركات التي تقوم بالتصدير لفترات قصيرة، لكن الشركات الأمريكية لا تعاني هذه المشكلة لأن معدل التصدير يتراوح بين أحد عشر إلى اثني عشر بالمئة، فضلاً عن أن الفارق الدولاري بين معدلات التصدير والاستيراد يمكن استغلاله في تنفيذ مخططات أخرى من قبيل خفض الضرائب وتقليل تكلفة استهلاك الطاقة ورفع القيود التجارية، وكلها أمور كانت ضمن البرنامج أو الوعود الانتخابية لترامب. وعلى الرغم من عودة الدولار القوي، فلن تتوقف أمريكا عن تهديد الصين والادعاء مثلاً بأنها الدولة التي تتلاعب بالعملات العالمية بحيث يؤدي الأمر في النهاية إلى تزايد قوة العملة الصينية. قد يؤدي ارتفاع الدولار إلى تزايد قوته الشرائية وخفض أسعار الاستيراد داخل أمريكا مما سيدعم التجارة والاقتصاد الأمريكي بشكل عام كما سيعزز من نجاح المصانع والشركات العاملة داخل أمريكا. كما يغطي هذا الفصل عددًا من النقاط المهمة مثل: جذور النموذج الاقتصادي لترامب، ونقطة التحول المهمة في الاقتصاد الأمريكي كانت عامي ٢٠١٢م/ ٢٠١٣م، والاقتصاد الأمريكي أقوى مما نعتقد، وكمن يصطاد في ماء مضطرب؛ يقصد المؤلفان هنا ترامب الذي تسلم أمريكا وهي تتعافى اقتصاديًا معاودة سيرتها الأولى لما قبل ٢٠٠٨م وهناك علامات كثيرة تثبت هذا الأمر، والإمكانيات المتاحة والسياسات الاقتصادية التي يمكن لترامب الإفادة منها. في الفصل الثالث من هذا القسم، وهو الفصل المخصص للحديث عن كوريا الجنوبية وكيف يمكنها تجاوز أزمتها المالية بنسبة ٩٠٪. فإن حدث الصدام المحتمل بين أمريكا

والصين، بحيث قامت كل دولة بالتركيز على حماية اقتصادها وشعبها فإنّ كوريا ستتأثر بذلك حتمًا. لقد اتجهت الصين بالفعل نحو الاقتصاد الصناعي القائم على صناعة منتجات وسيطة وليس مجرد استيراد تلك المنتجات وتجميعها هناك. ولو قامت الحرب المحتملة بين الصين وأمريكا فسوف يتم تسريع هذه العمليات التصنيعية في الصين، وسيسعى ترامب للحيلولة دون ذلك بضغط من مؤسسات دولية لأجل حماية سياساته الاقتصادية في الوقت الذي ستدفع فيه الصين تلك المؤسسات لقبول فكرة التبادل التجاري الحر الذي سيدعم اقتصادها بقوة بينما سيكون تأثيره الاقتصادي على كوريا الجنوبية أقل دعمًا. بل وسيكون تأثيره قاسيًا على الاستيراد العالمي للاقتصاديات الواعدة لأن ترامب سيفرض ضرائب تقدر بـ ٤٥ بالمئة على الاستيراد من الصين و٣٥ بالمئة من المكسيك. إن تلك الاقتصاديات الواعدة تعاني أصلاً القلق من ارتفاع أسعار المواد التصنيعية والبترول على المستوى الداخلي، نحن نتحدث هنا- كما يرى المؤلفان- عن المكسيك وكوريا الجنوبية كمثالين لما سيحدث. ويرى المؤلفان أن الأعراض الخطيرة على الاقتصاد الكوري قد ظهرت عام ٢٠١٢م، وأن الديون المستحقة على قروض شراء المنازل يمكنها الانتظار حتى ٢٠١٩م. في الفصل الرابع من هذا الباب تحت عنوان «إمكانيات متاحة وسط الأزمات الاقتصادية؛ سيناريو بلاك سوان». يعرض المؤلفان الأسباب وراء هذا الإلحاح إلى تعرض كوريا لأزمات اقتصادية محتملة جراء الحرب بين أمريكا والصين، كما أنهما يؤكدان على ضرورة عدم المبالغة في التفاؤل بشأن إمكانية التغلب على تلك الأزمات. فعلى الكوريين أن يكونوا موضوعيين وأن يستعدوا لمواجهة ما هو قادم لأنه سيكون واقعًا لا خيالاً. فبالاستعداد الجيد يمكن للكوريين الحيلولة دون حدوث ذلك في الواقع، فإن لم يفلح ذلك فعلى الأقل سيتمكن الكوريون من التعامل مع الأزمة وإيجاد فرص استثمار متاحة خلالها لأن مثل تلك الأزمات لا تكون على هيئة موجة واحدة، إنها مثل نهر طويل وعميق جدًا، ولو استطاع الكوريون عبور ذلك النهر فستكون هناك فرص كبيرة متاحة بانتظارهم. أما المقصود ببلاك سوان فيعني المستقبل غير المتوقع تمامًا كالورقة التي تقلب اللعبة رأسًا على عقب في لعبة الأوراق «الكوتشينة». هذا السيناريو يتوقع المؤلفان وقوعه خلال الفترة من ٢٠١٧م إلى ٢٠٢١م ولذا فهو يضع سيناريو الاستثمار التالي: من ٢٠١٧ إلى ٢٠١٩م الاستثمار على الدولار، ومن ٢٠١٩م إلى ٢٠٢٠م الاستثمار في البورصة الكورية، ومن ٢٠٢٠م إلى ٢٠٢١م الاستثمار في البورصة الصينية، ثم العودة للحالة الكورية.

يأتي القسم الثاني من الكتاب تحت عنوان «الموجة الرابعة آتية». ويرى المؤلفان أنه بعد أن تم تجاوز الموجة الصناعية الثالثة، بدأت الموجة الرابعة المعتمدة على التكنولوجيا الذكية للآلات والبشر جنبًا إلى جنب بما سيغير أساليب اتخاذ القرار من خلال أطر خاصة محددة مثل التحكم الذاتي والأبدية البيولوجية والأحلام اللامحدودة فيما يتصل بالأعمار البشرية لأجل أن يتمكن المخ البشري من التعامل مع العالم الرقمي داخله. سيصحب هذا تحوّل المدن إلى الصناعة والإنتاج اعتمادًا على ذكاء الآلات والبشر كما أشرنا من قبل. أما القسم الثالث والأخير فقد تناولا فيه «قراءة في نماذج الثروات»؛ حيث ستتحقق دورة الازدهار الاقتصادي في مرحلتها العاشرة خلال القرن الحادي والعشرين، تلك الدورة التي استلهمت روحها من النموذج الأمريكي للاقتصاد في القرن العشرين. ثم يختم هذا القسم بفصل مهم عن أهمية القانون ودوره في ظل الموجة الرابعة وفي ظل المتغيرات العالمية غير المسبوقة على المستويات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية.

عنوان الكتاب: الموجةُ الرابعة آتيةٌ
المؤلفان: تشوي هيون شك، وتشوي يون شك
الناشر: جيشك نوماد
اللغة: الكورية
سنة النشر: فبراير ٢٠١٧م
عدد الصفحات: ٥٠٠ صفحة

× مدرس الأدب الحديث والمقارن كلية الآداب
جامعة القاهرة

"التباين".. لسلافوي جيجك

علي الرواحي *

منذ البدء ينبغي الإقرار بأن ترجمة عنوان هذا العمل محاطة بالالتباس والتداخل مع الكثير من المعاني والسياقات والمرجعيات، وبشكل خاص مع مرجعية الفيلسوف الألماني هيجل، ذلك أن هذا العمل يعود من جديد لمناقشة هيجل؛ اذا أخذنا في الحسبان أطروحة الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك التي كانت عن هيجل في العام ٢٠١٢م، والتي حملت عنوان «أقل من اللاشيء: هيجل في ظلال الجدلية المادية»، يأتي هذا الإقرار من الفيلسوف السلوفيني بشكل مباشر، فهو في مطلع هذا العمل يعود للأطروحة الهيجلية المركزية «فينومينولوجيا الروح» والتي يضعها هنا كمرجعية في التفكير، والتعبير أيضا؛ ذلك أن هذا المفهوم مشتق منها بالمعنى الحرفي، وبالمعنى الرمزي على حد سواء.

في هذا العمل، يناقش جيجك بواسطة «العيون» الهيجلية ثلاثة مواضيع رئيسة مختلفة: الأنطولوجي: على ضوء الاكتشافات العلمية التي تُظهر بشكل مستمر التناقضات والنقص في تصورات الإنسان عن الكون، والحقيقة، والذات، والمقدس...وغيرها من المواضيع، كما يناقش الجزء الثاني الجانب الجمالي: وعلاقته بالحداثة، والجمال، والقُبح، والجانب الموسيقي من المنظور الهيجلي، في حين أن الجانب الثالث يناقش اللاهوت السياسي ويتطرق للتحولات المختلفة في جوانب السلطة، والعادات، والعلاقات الاجتماعية. وهو في ذلك يُعرّج كعادته على الكثير من المواضيع المتداخلة، والأسماء التي تبدو متباعدة، والتخصصات التي تُعتبر تقليديا بدون روابط، وهنا مكمن قوة وأصالة أطروحات الفيلسوف السلوفيني، «التي لم تبقِ موضوعا على الأرض لم يكن قمحا لمطحنة جيجك الثقافية» كما قال ذات يوم الناقد الانجليزي الشهير تيري إيجلتون.

اختلافات الحقيقة: الذات.. الموضوع والبقية

في سعيه لتجذير الاختلاف، وتأصيله إلى أعمق مدى من الممكن الوصول إليه، يطرح جيجك ضرورة التعددية في رؤية الوجود (ص:١٩)، وتسميته، والحديث عنه، كما هو لدى الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز؛ وذلك بدءا بالتسمية القائمة على التراتبية الوجودية العلوية الأفقية، واستبدالها بالحديث عن الوجود فقط من خلال البنية الاقتصادية الواقعية التي ترتبط كثيرا بالأيديولوجيا التي تعتبر «الأقل واقعية»، والانغماس في تفاصيل الحياة اليومية المختلفة كالسينما والرقص والعزف على البيانو...وغيرها من التفاصيل التي تنبع من الحياة، وفي المقابل تمنح الوجود أبعادا مختلفة؛ الأمر الذي يجعل كل الظواهر الحياتية متساوية من حيث المبدأ، فالفرق بين القديم والجديد يبقى معُلقا، وغير واضح المعالم، فنحن نعيش في «خط عام» كما يقول آينشتاين، وهي أيضا -وبشكل أساسي- ضد الرؤية الأرسطية للوجود. بشكل فلسفي عميق نجد هذه الرؤية المتعددة تجاه الوجود، لدى الفيلسوف الهولندي سبينوزا، الذي علّق وبشكل مدهش وجذري البُعد الانطولوجي وذلك في كتابه «الأخلاق»، فالاختلاف أو التعددية هنا لا تُحيل إلى وجود فراغ بين الفضاءات الواقعية، بل تُعيدنا إلى الفاصل بين الشيء واللاشيء. ذلك أن «أ» هنا ليست نقيض «ب»، لكن «أ» أيضا ليست مكتملة. من هنا، نجد أنفسنا أمام اختلاف وجودي لا يمكن ردمه، أو التقليل منه، بل هو جزء أساسي ومكون من مكونات الوجود البشري.

وفي الجانب الإنساني والمتعلق بجانب الحقيقة وعلاقتها بالذات والموضوع (ص:٢١)، يتطرق جيجك منطلقا في ذلك من رؤية الفيلسوف الألماني هايدغر وما تشهده الطبيعة البشرية للكثير من التحولات والمتغيرات من حقبة ما بعد الإنسان، إلى الإنسان العابر وإلى الإنسان المتوحش، ذلك أن هذه الحضارة العلمية التكنولوجية تؤدي للكثير من المخاطر، والمخاوف غير المتوقعة، غير أنها من الجانب الآخر فإنها تعتبر «طفرة»، وتعُبّر عن إمكانات جديدة غير متوقعة من التفرد، والقوة، والتميز، كما أن هذه الطفرة لا تقتصر فقط على الجانب النظري بل تصل أيضا إلى الجانب العملي والتطبيقي التي تشمل الجانب البيولوجي والجسدي، وإلى حد كبير الجانب العقلي والتشريعي أيضا؛ حيث تتعايش أو تتزامن في هذا الجانب الكثير من وجهات النظر المختلفة، والتي تؤثر على الوضع الثقافي البشري، والهوية الشخصية، متجاهلة بذلك الوضع البشري المتفرد الذي يعيشه الإنسان؛ فالدروس المختلفة التي يتلقاها هذا الكائن، وبشكل خاص من البيئة تتلخص في أنه واحد من الأنواع الحيوانية في الأرض، وبأنه جزء من الطبيعة، كما أنه لا يوجد فرق أو تفاضل بينه وبين مختلف الكائنات في مملكة الحيوان الواسعة. فعن طريق التطورات العلمية المختلفة وبشكل خاص العصبية يكتشف الإنسان الكثير من الحقائق عن نفسه، وعن أعصابه، وإمكاناته المختلفة التي تزعزع الثقة بكماله، ومثاليته من جهة، كما أنها في المقابل تجعل الجسد بكل أعضائه مختبرا لمختلف العلوم والنظريات.

تقودنا هذه التطورات حسب جيجك للحديث عن الذات البشرية في عصر الإنثروبوسين (ص:٣٠) أو عصر التأثيرات البشرية على المناخ والبيئة بشكل مباشر، وكبير، حيث اكتسبت مؤخرا المسألة البيئية والمناخية الكثير من الأهمية، وذلك من خلال البحوث والدارسات المختلفة، والمؤتمرات الدولية التي تقام بين فترة وأخرى على أعلى المستويات السياسية والاقتصادية والفكرية، والتي تعتبر هنا -حسب جيجك- بمثابة معركة أيديولوجية تسعى للتشويش على الكثير من القضايا الأخرى المهمة، كما أنها تسعى للعودة بالإنسان إلى الطبيعة الأم، وذلك على إثر التصنيع الذي يقوم به الإنسان بشكل متزايد، حيث إن هذه الدعوات ليست جديدة، فهي متوفرة منذ زمن ليس بالطويل، وهو ما يعتبر توقعات لها نصيب كبير من الصحة والواقعية.

وفي القسم الثاني من الجزء الأول (ص:٥٥)، يُلح جيجك على ضرورة العودة للموضوعية والذاتية في مقابل دعوات إعادة السحر للطبيعة، وهو في ذلك يقوم بالرد كعادته بالاستناد للمرجعية الهيجلية ومرجعية المحلل النفسي الشهير جاك لاكان، على الكثير من الأطروحات التي تذهب في الاتجاه المُعاكس للحداثة، والتي ترى بأن العالم لم يكن حداثيا في يوم من الأيام، ذلك أن المقدس بصيغه المختلفة ما زال حاضرا بقوة في الحياة العامة والشخصية للأفراد والجماعات على حد سواء، وربما يتجلى ذلك في جدلية الحضور والغياب التي تتصدر هذا المشهد، ففي الجانب التقليدي من المشهد يطغى الجانب المذكر أو الذكوري على جميع الجوانب، في حين نجد أن الجانب الآخر يشترك فيه الجانب الأنثوي بدون تمييز أو استثناء. وهذا يُجبر جيجك على العودة من جديد للأيديولوجيا ولكنها ليست تلك المنغلقة، بل تلك المنفتحة، والتي تحتمل تعدد الرؤى، والمستويات؛ حيث يعود لمناقشة كتاب «ديمقراطية الأشياء» الصادر عام ٢٠١١م للفيلسوف الأمريكي ليفي.ر.برانت، والذي يلخصه وبشكل معمق جدا، بأن الديمقراطية كطريقة تعامل، وأسلوب حياة، تتلخص في العلاقات بين الذوات المتساوية من حيث الأبعاد الوجودية.

وفي القسم الثالث من هذا العمل (ص:٨٩)، يعود جيجك لمناقشة الوعي الذاتي وضد تنميط هيجل، حيث يقوم بالدفاع عن جنون هيجل رافضا ترويضه من خلال العودة لبعض المفاهيم الهيجلية مثل المعرفة المطلقة، وانتشار الوعي الذاتي وتوزعه على الأشياء المحيطة به، وذلك من خلال مناقشة مخطوطة كتاب روبرت براندون «روح الثقة: قراءة دلالية في فينومينولوجيا الروح»، حيث يعود لمفهومين هيجليين أساسيين تناولهما براندون وهما: عدم النفي، والتوسط، وفي ذلك يأخذ لنا مثال لون الكرسي الذي نجلس عليه، فلونه محدد وواضح للجميع، فهو أحيانا أبيض وليس أسود، كما أن التوسط يشير إلى تلك المادة المصنوع منها الكرسي والتي هنا البلاستيك ودورة حياتها والعلاقات المختلفة كالتصنيع، والثقافة المجتمعية التي تُحدد إلى حد كبير هذه المادة. ينطلق من هذه المفاهيم وهذه الأمثلة أيضا إلى مفهومين مهمين؛ هما: الإقصاء والتضمين، ففي المثال السابق -الكرسي- نجد أن التضمين يفضي إلى إقصاء الكثير من الأشياء والصفات المختلفة عن الشيء ذاته، غير أن المسكوت عنه هنا هو أن هذه الأمثلة تجعل المرجعية

الذاتية هي الفيصل في ذلك، وهذا يقودنا إلى مفهوم مركزي آخر وهو مفهوم السلب، والذي لا يتحدد بصفات الشيء، بل بما هو ليس فيه، أو بالإقصاء الذي حدث، وهذا يجعلنا نتحدث عن مفهومي الهوية والاختلاف، حيث إن كل هوية يتوسطها الاختلاف، وهي تستمر عن طريق شبكة من الاختلافات؛ الأمر الذي يجعلنا نلتقي من جديد مع هيجل ونخرجه من التنميط المراد له أن يبقى فيه.

التباين الجمالي: القُبح.. الذات.. والاختلاف البسيط

في الجزء الثاني من هذا العمل (ص:١٤٣)، يناقش جيجك الفن بعد هيجل أو هيجل بعد نهاية الفن، وهو بذلك يعود لهيجل بوجهة نظر مضادة له، ومعاكسة لاتجاهه، لكنها منبثقة منه ومن رؤيته للفن بشكل عام؛ حيث نجد منذ فترة طويلة قد تم وضع الفن والدين كطريقتين أساسيتين من طرق التعبير البشري عن الوجود، والهموم، وطرق الحياة المختلفة، وكل ما يصاحبها من تساؤلات وجودية لا تنتهي، فالفن حسب تشخيص هيجل الشهير ومع بروز الحداثة وصعودها لم يعد حاجة ملحّة ومهمة للروح البشرية، بالرغم من وجود وإنتاج الكثير من الأعمال الشهيرة والمتميزة من أنواع الفنون المختلفة، بل أصبح العلم هو الذي يحظى بأهمية كبيرة، غير أنه وفي المقابل نجد أن الفن لم يعد منحصرا في الفن الجميل كما يقال، بل نجد ومنذ فترة طويلة أننا أمام تلك الجوانب التي لم يتم التركيز عليها كثيرا كالتحديقة القبيحة، أو تلك الفنون التي انتقلت من الجميل إلى المربع والقبيح، وذلك اعتبارا من أطروحة كارل روزن كرانز عام ١٨٥٣م بعنوان «في جمالية القبح»، والذي كان يعتبر معارضا لهيجل، لكنه أيضا أول من كتب سيرة رسمية للفيلسوف الألماني، حيث نجد في هذه الأطروحة بأن كارل قد تخلى عن فكرة الحقيقة الواحدة المندمجة مع الجميل والخيّر، فمن الممكن أن نجد في القبح فكرة تتسم بالجمال، أو بتعبير آخر من الممكن أن يسرد لنا القبح قصة جميلة، فهما متلازمان، ولا يمكن لنا معرفة الجميل بدون القبيح، والعكس بالعكس، وهذا يقودنا للحديث عن العلاقة بين الهزلي والجميل والسخيف وكل الأذواق الأخرى الجمالية...وغيرها، كما أنها تقودنا للحديث عن الجوانب غير التصويرية أيضا، فبعض تجليات الفنون أو أشكالها المختلفة ليست تصويرية فقط، بل تتخذ جوانب أخرى. وفي مقابل ذلك، نجد أن هناك جانبا آخر من الجوانب البشرية والإنسانية التي لا يمكن تجاهلها أو تناسيها، وهو الجانب القبيح، والمخيف، والمقزز، لكأننا أمام نسخة أخرى من الطبيعة البشرية والتي تعتبر مغايرة تماما للجانب الجمالي، والجليل والرائع للإنسان، حيث تتجلى هذه الجوانب في تلك الهفوات والأخطاء والتفسخ والتقيؤ وغيرها من التصرفات والسلوكيات البشرية الإرادية وغير ذلك.

وفي كل الأحوال، نجد أن الإنسان باستطاعته التنصل أو إنكار الكثير من الأفعال والتصرفات التي يقوم بها وبشكل خاص الأفعال القبيحة والمخيفة (ص:١٧١)، فهناك الكثير من الطرق المختلفة كعدم الاكتراث، أو الالتفاف حولها، أو خلق بدائل جميلة بمثابة تعويض لهذا القبح، كما هي الحال في الكثير من المفاهيم والموسيقى والرقص واللوحات والحب...وغيرها، وهذا لا يحدث بشكل كبير دون اجتياز الذات أو تجاوز الكثير من العقبات والكوابح التي تقف عائقا أمام ذلك، بما فيها العوائق الذاتية والموضوعية على

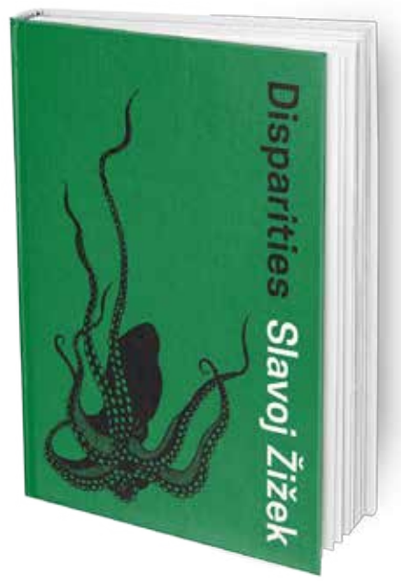

حد سواء، وتنقية الذات من الكثير من الصفات كالدناءة والخسة وغيرها.

التباين في الخير: محنة النساء.. السلطة.. والصداقة

يناقش جيجك في الفصل الثالث والأخير (ص:٢٣٣) من هذا العمل مسائل متنوعة سياسية، وفلسفية، على قدر كبير من التنوع والاختلاف، ففي البداية يتحدث عن الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر، مُبديا رأيه حول الدعوات الأخيرة؛ وذلك بعد صدور الجزء الأول من «المذكرات السوداء» في العام ٢٠١٤م، ذلك أن الكثير من الدعوات والتي جاءت من الأحزاب اليمينية واليسارية على حد سواء، والتي تذهب بضرورة التعامل معه بوصفه مجرما ومتعاونا مع النازية، غير أنه في حقيقة الأمر فإن هايدغر كان مخدوعا إلى حد كبير، حيث تشير هذه المذكرات إلى وجود شك وعدم اطمئنان من قبل الفيلسوف تجاه النظام الألماني في تلك الفترة، وبشكل خاص مع ذلك التمجيد الكبير الذي بدوره يغرس الفخر الكبير بالذات والتاريخ مما ينعكس على رؤية الأفراد تجاه الآخرين، وتجاه ذواتهم أيضا.

يُثير النقاش حول فيلسوف الغابة السوداء الكثير من الخطوط العريضة والدقيقة المختلفة، منها علاقة الفلاسفة بالسياسة من جهة، وعلاقتهم بالأوطان من الجهة الأخرى، وإلى أي حد من الممكن للفيلسوف أن يكون لا وطنيا، أو خارج كل الانتماءات؟ والمقصود هنا الانتماءات غير الإنسانية الواسعة، تلك التي تُمجد تاريخا معينا، وعِرقا محددا، على حساب الأعراق والتواريخ الأخرى، أو كيف من الضروري أن يكون الفيلسوف واعيا، ومنتبها للكثير من ألاعيب السياسة العرضية واللحظية، والتي تهدف في المقام الأول للانتصار للذات وتجييش الجماهير، واللعب على الكثير من الأوتار المختلفة كالرهاب من الأجانب أو الخوف على مكتسبات الوطن، أو وجود عرق متفوق على بقية الأعراق الأخرى. ذلك أنه في الكثير من الحالات يكون الخط السياسي الذي يعتنقه الفيلسوف بمثابة ترويج لهذا النظام دون ذاك في فترة زمنية محددة، فالسلطة الفكرية التي يتمتع بها، وتلك القادرة على إقناع الكثير من المتابعين والقُراء كفيلة بأن تجعل هذا الخط مقبولا لدى الكثيرين وربما محل جذب لدى الكثير من الأشخاص. غير أنه في المقابل، نجد أن الفيلسوف ليس بتلك المثالية المُعلقة خارج ضغوطات الحياة وإكراهات السلطة وإغراءاتها المختلفة، فبسبب هذه القوة الفكرية التي يتمتع بها، والصوت الناقد للكثير من الأشياء التي تدور من حوله، نجد أنه عُرضة للكثير من الضغوطات التي تأتي من مصادر مختلفة، وليس من مصدر سلطوي واحد، فالجميع -تقريبا- يطمع في جعل هذا الفيلسوف مناصرا لهذا الاتجاه دون ذاك، ذلك أن هذه المناصرة تعتبر دليلا من أدلة صحة المعتقد، ومتانته، وضرورة اتباعه من قبل الآخرين، وهذا ينطبق على الكثير من الشخصيات على مرّ التاريخ المُعاصر والقديم، غير أننا نجد في الكثير من الحالات أن الفيلسوف يمتلك رؤية مغايرة للجميع، ليست كبقية الرؤى المنتشرة في سياق معين، وهو ما يضع الفيلسوف في كفة مغايرة للجميع.

في مديح اليأس

وفي خاتمة هذا العمل المتنوع إلى حد كبير من حيث الأفكار والمواضيع وطرق المعالجة وأساليب الرؤية والمرجعيات الفلسفية المختلفة (هيجل، هايدغر...وغيرهما) والتحليل النفسي اللاكاني (نسبة إلى المحلل الفرنسي الشهير جاك لاكان)، وتلك الرؤية تجاه مستقبل الإنسان في ظل التكنولوجيا التي تتطور يوما بعد يوم، والتي عن طريقها نجد أنفسنا أمام الإنسان العابر والمتوحش الذي يمتلك من القوة والذكاء ما يتفوق به على أقرانه من البشر الطبيعيين، الذين لا يمتلكون هذه الإمكانيات الفائقة، نجد أنفسنا أمام اختلاف زمني حاد، فائق القوة والإمكانيات، غير أن القبول بهذا الاختلاف وهذه البدائل، يتطلب القبول أيضا -وبقدر موازٍ لذلك- بالعواقب والنتائج المختلفة، والتفكير فيها من وجهة نظر مختلفة أيضا، لا تشبه الأدوات الزمنية السابقة. فاليأس هنا (ص:٣٦٧) هو القوة المحركة والباعثة على التفكير كما يقتبس جيجك من الفيلسوف الإيطالي إجامبن في مستهل حديثه، لأن هذا اليأس يجعل الضوء في آخر النفق مجهولا إلى حد كبير، فالشجاعة الحقيقية ليست تخيل البدائل فقط، بل القبول بها، أو الاعتراف بأن التمييز بين البدائل لم يعد واضحا بما فيه الكفاية كما هي الحال في الفترات الزمنية السابقة، كما أن هذه الشجاعة قد تكون تمهيدا لرؤية قطار عابر من الممكن أن يدلنا على حلول مختلفة أخرى، فالحلول والبدائل ليست بالضرورة محصورة في مكان واحد، أو تأتي من سياق واحد، بل من الممكن أن نجدها ممتزجة في النقائض، والاختلاف، والتباين، كما هي الحال في الأمثلة السابقة المعروضة في هذا العمل؛ فالأحادية كما هي الحال في تسمية الوجود ورؤيته والنظر إليه، لم تعد ممكنة ومجدية في ظل هذه التعددية التي تجعل العالم يمتلئ بوجهات النظر التي ليست بالضرورة تمتلك المقدار ذاته من القوة والصلابة والحضور، ففي بعض وجهات النظر الغائبة، والمخفية، الكثير من الصحة والإمكانات الواعدة، التي تطرح الكثير من الحلول.

- الكتاب: «التباين».
- المؤلف: سلافوي جيجك.
- الناشر: (BLOOMSBURY ACADMIC)، ٢٠١٧م، بالإنجليزية.
- عدد الصفحات: ٤٤٢ صفحة.

* باحث وكاتب عُماني

أوكرانيا! وهل كانت هناك أوكرانيا؟ لأناتولي تيريشينكو

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

برغم ارتباط روسيا العضوي بأوكرانيا، ومع قوة الوشائج الروحية والعرقية التي تلاحم شعبيهما، إلا أن هذا الارتباط نفسه كان ولم يزل سببا في إحداث الشقاق بين الإخوة. فبدل أن يكون ما يجمع بينهما مدعاة للتواد والتراحم، أصبح جرحا يتعمق ويباعد بين البلدين الجارين. وفي الميزان التحليلي لقضية أوكرانيا وروسيا يجد المتابع المدقق أن التوتر القائم بين البلدين مفتوح على جهات خارجية وجدت في الاتصال الطبيعي بين روسيا وأوكرانيا مدخلا للسيطرة على مقدرات البلدين الهائلة والتحكم بها. هذا أمر له جذور في التاريخ الأوروبي وتجاذبات كثيرة في حلبة صراع القوى بين بلدان القارة. فها هو مستشار الامبراطورية الألمانية أوتو فون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) يحرض على تفكيك روسيا والسيطرة عليها من خلال أوكرانيا ومن بين ما قاله في هذا الأمر: «ثمة طريقة واحدة وحسب لتقويض القوة الروسية وهي فصلها عن أوكرانيا (...) من الضروري أن ننتزع منها أوكرانيا، ولكن أيضا أن نشيطن أحدهما على الآخر. ومن أجل تحقيق ذلك يلزم البحث عن العملاء بين النخب ورعايتهم ومن ثم معاونتهم للتأثير على الوعي الجمعي في هذا الجزء من تلك الأمة العظيمة، بحيث يضمر الأوكراني الكراهية لكل شيء روسي، يكره عائلته وقومه الذين يمتون إلى الروس بصلة وذلك من دون أن يدرك ما يفعله، بعدها نترك للوقت إتمام المهمة».

في ظل هذا الوضع المتناقض وعلى ضوء الصراع السياسي والعسكري الراهن في جنوب شرقي أوكرانيا، واستمراره وتفاقمه، تظهر بين الحين والآخر دراسات باللغتين الروسية والأكرانية يعتمد جزء منها على جوانب الخلاف بين البلدين والشعبين، فيرتكز على المسار التاريخي للدولة الأوكرانية المنفصل عن روسيا، وينافح عن استقلال أوكرانيا كدولة ووصفها كأمة موحدة، بينما يؤكد الجزء الآخر من الدراسات على الارتباط الوثيق بين شعبي البلدين ولحمتهما القومية التي لا تتجزأ.

أحد الأعمال ذات الخصوص الصادرة مؤخرا جاءت بقلم العقيد السابق في جهاز أمن الدولة السوفيتية، عضو اتحاد كتاب واتحاد صحفيي موسكو أناتولي تيريشينكو، أوكراني المولد والمنشأ، بل إنه من غرب أوكرانيا الذي تتصاعد فيه حدة المواجهة مع روسيا. أما لحمة كتبه وأفكاره فتنحاز إلى الجانب التاريخي والروحي الذي يجمع بين الشعبين الأوكراني والروسي، فيؤكد أن حبه للشعب الأوكراني البسيط هو ما يدفعه للكتابة والتأليف.

في فصلي الكتاب «روسيا وعاصمتها كييف» و «الأمراء الروس والفتنة» يكرس المؤلف جهده على مسألة تشكل الأوكرانيين كوحدة عرقية مستقلة نشأت ضمن الدولة الروسية القديمة، مثلما هو متعارف عليه عند المؤرخين، ولكنه، بالمقابل، أمر تتجاهله وتنفيه الدولة الأوكرانية الحديثة. وفي فصل «الأصول اللغوية واشتقاق كلمة أوكرانيا» يطرح الكاتب مسألة أولية عن أصل كلمة أوكرانيا، معضدا استنتاجه بالقاموس الشارح الذي وضعه اللغويان بروغهاوس وإفرون في نهاية القرن التاسع عشر ومازال مرجعا علميا يعتد به حتى اليوم. ففي مادة أوكرانيا يقول القاموس: «في نهاية القرن السادس عشر انضم الجنوب الروسي إلى دوقية ليتوانيا الكبرى، وبعدها أصبح جزءا من الكومنولث البولندي الليتواني، وهكذا إلى أن اكتسب هذا الإقليم الروسي الواقع في الأجزاء الأوروبية في القرون الوسطى اسم أوكرانيا (أي الأرض الحدودية أو الضواحي باللغات السلافية) وهي تسمية غير رسمية. وكانت تلك الأراضي تمتد بطول حدود الدولة البولندية، فكما لو أنها واقعة على حافة بولندا. بناء على ذلك جرت تسمية أهالي هذه المناطق بأناس الضواحي أو أناس الحافة، أي الأوكرانيين». ويؤكد المؤلف على أن هذه التسمية إنما صارت بحكم الجغرافيا ولا تقوم على البنية العرقية الواحدة البتة. يقول في هذا الصدد: «أطلقت تسمية الأوكراني على الشعب الذي كان يقطن تلك الأماكن، وهي تسمية تشمل طبقة النبلاء البولنديين واليهود والقوزاق. وبمرور السنين ازداد عدد سكان المنطقة وانسحب اسم أوكرانيا على أماكن خارج الموقع الأصلي (...) وأصبحت البلاد كغطاء خيط من أقمشة مختلفة الألوان. مع ذلك فقد تنامى الشعور القومي وتعزز الوعي بالهوية الأوكرانية. ومع الوقت بدأت في الظهور أصوات تقطع مع النطاق الجغرافي لصالح التأكيد على الطابع العرقي لتلك المساحة» (ص ٥١ - ٥٢).

كرس المؤلف جهدا في إيجاد الحجج لتعزيز قناعته في وحدة المجتمع الروسي والأوكراني وتأكيد رؤيته التي تدحض الخطاب الرسمي لساسة أوكرانيا الحديثة عن وجود أمة أوكرانية قديمة تحدثت دائما بلغة خاصة تخصها؛ فالواقع التاريخي - مثلما يؤكد المؤلف مرارا وتكرارا - لا يجيز مثل هذه المقولات. وبحسب المؤلف فالحوليات التاريخية التي دونت على لحاء البتولا لا تحتفظ بنص مكتوب باللغة الاوكرانية، وبأن أحدا لا يعرف بأي لغة تَخاطب الناس شفهيا في كييف القديمة، في حين أن المؤكد أنهم استخدموا اللغة السلافية والروسية القديمة في كتاباتهم. أما اللغة الأوكرانية التي يزعمون أصالتها فإن أقدم أثر لها يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر» (ص ٥٤).

وإذا فالكاتب يؤكد على أن جذور الصراع الحالي في جنوب شرق أوكرانيا تعود تاريخيا إلى التباين بين مناطق البلاد: المنطقة الغربية التي كانت على مدى قرون ضمن مجال الدول الأوروبية المركزية واعتنق سكانها الكاثوليكية تحت وصاية الكنيسة البابوية (اتحاد الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية)، في حين أن سكان الأراضي الشرقية لأوكرانيا الحديثة، ناهيك عن شبه جزيرة القرم، ارتبطوا بحبل وثيق بأرومتهم الروسية وذلك إلى أن ضمت الحكومة البلشفية في العشرينيات من القرن الماضي تلك المنطقة إلى الجمهورية الأوكرانية السوفيتية. وفي هذا السياق يعلق

الكاتب بقوله: «في ظروف صعبة قرر زعيم البروليتاريا العالمية (لينين) استرضاء وتهيئة كييف فاقتطع جزءا صغيرا من أراضي روسيا العظيمة، سوية مع هيكله الصناعي المتطور، ومنحه للجمهورية الأوكرانية السوفيتية. وهكذا أصبحت دونباس، الهدية القديمة، سببا لنزاع دموي بعد انقلاب عام ٢٠١٤. ويشير استمرار الأحداث الدامية في الجنوب الشرقي من أوكرانيا إلى أن هذه المنطقة غالبا ما تنجذب إلى روسيا في محاولة منها لإثبات هويتها العرقية الثقافية، ويكون ملاذها الطبيعي إلى الشرق لا إلى الغرب» (ص ١٢). ويخلص المؤلف إلى أن الصورة الراهنة تشير بوضوح إلى وجود شعبين في أوكرانيا: الغربي مع تراثه الذي تشكل في ظل إيهام من البابوية البولندية والامبراطورية النمساوية المجرية والشعب الشرقي الذي استمر في هواه الروسي.

يرصد المؤلف في فصول مختلفة من كتابه تاريخ حركات الانفصال الأوكراني عن الجسد الروسي، ويتوقف عند محطات من هذا التاريخ الذي اتسم معظمه باللجوء إلى الخارج لنيل الدعم وتحقيق الحلم المنشود، كالاعتماد على الامبراطورية النمساوية المجرية وعلى البولنديين والألمان ومن ثم الرومانيين. وفقط عند انفراط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ تحقق المُبتغى بشكل سلمي ومن دون مطالبة بأية تعويضات من قبل روسيا.

ينثر المؤلف في كتابه آراء ومقولات لشخصيات تاريخية شهيرة تحدثت عن العلاقة بين روسيا وأوكرانيا ومصير شعبيهما، والمثير أن جميع تلك الآراء تؤكد على وحدة الثقافة والمصير بين البلدين، فها هما الكاتب الروسي الأوكراني الكبير نيكولاي غوغول والكاتب الأوكراني الذي يرجع إلى غرب أوكرانيا: إيفان فرانكو ها هما يتفقان على تسمية أوكرانيا «روسيا الصغرى» ويعتقدان عميقا بوحدة الشعبين، دما وروحا وعقلا. ولكن الأكثر حصافة ما دونه الكاتب الروسي الكبير فيودر دوستوفيسكي، إذ كان كما لو أنه يلقى بنظرة تنبؤية على ما سيؤول إليه الحال بعد أكثر من قرن عن وفاته؛ ويورد المؤلف مقولة دوستوفيسكي التي يذكر فيها الآتي: «لم يكن لروسيا، ولا في أي وقت مضى، ولن يكون لها أبدا مثل هؤلاء الحاقدين والحسودين والنمامين، بل والأعداء الصريحين من القبائل السلافية. فبمجرد أن ينفصلوا عن روسيا وتعترف أوروبا بسيادتهم سيبدأون حياتهم المستقلة الجديدة على التسول عند أبواب أوروبا وسيطرقون أبواب الإنجليز والألمان من أجل ضمان وحماية حريتهم، وبرغم وجود روسيا في هذا المحفل من القوى الأوروبية،

إلا أنهم سيرفعون شعار الحماية من روسيا (...) بعد ذلك بقرن أو أكثر سيرتعشون خوفا على حريتهم من أطماع روسيا التواقة للسيطرة، وسيحاولون كسب الود الأوروبي بشتى الطرق وإن كان ذلك بالافتراء على روسيا وترويج الأكاذيب عنها والتآمر ضدها (ص ٣٤١). وعن العلاقة بين الشعوب السلافية (أي الروس والأوكرانيين والبيلاروس والتشيك والصرب...إلخ) ثمة مخزون وافر من المقولات والتأملات التاريخية العميقة، وربما يأتي الفيلسوف اللاهوتي والسياسي الروسي نيكولاي بيرديايف (١٨٩٤ - ١٩٤٨... وهو أوكراني المولد فرنسي المهجر) في مقدمة المحللين اللامعين لهذه العلاقة «الشائكة»، وقد أوفاه مؤلف الكتاب حقه حين استأنس بآرائه في الكثير من فصول الكتاب. وما يميز تفسيرات هذا العالم عدم اكتفاءه بالعوامل السياسية والظروف التاريخية والتدخلات الخارجية في تأجيج الخلافات بين الشعوب السلافية عامة وإنما يتناولها من منظور اجتماعي ونفسي لا يخلو من تعقيد. ومن بين استنتاجات خبير العقلانية السلافية والروح الروسي هذا أن الشعوب المتشابهة، متشابكة الأصول، تبدو أقل قدرة على فهم بعضها البعض وتغذي في داخلها نفورا تجاه بعض. ومن بين أمارات التنافر ما نجده في أصوات اللغة القريبة من لغتنا، فتبدو مزعجة للسمع ونحسبها تشويها للغتنا الأم. مثل هذا يحدث في الحياة الأسرية حيث نرى التجافي والتخندق بين أفرادها، ونراهم يبخلون بالعطف والصفح على أقربائهم بينما يتكرمون به على الغريب.

يرتكز المؤلف في كتابه على الوضع الراهن للدولة الأوكرانية وآفاق مستقبلها، وحسبنا أن نقتطع الفقرات التالية من الكتاب لنقف على النهج التأليفي العام وطبيعة الاستبصار الذي أخذ به الكاتب: «لقد انفصل القطار الأوكراني ووضعه السادة المحليين على طريق مسدود. قاموا بتغيير مقاييس سكة الحديد الأوكرانية بحسب المعايير الأوروبية الغربية وذلك من دون تفكير بالمنتج الذي ستنقله أوكرانيا إلى الغرب على هذه القضبان الجديدة والضيقة؟ أما النتيجة البادية للعيان فهي أن هؤلاء السادة، وبعد أن قطعوا العلاقات الاقتصادية مع روسيا، أصبحوا مفلسين. فبعد أن تسلموا البلاد بشكل سلمي غير مكلف أتوا على موجودات الاقتصاد وخربوها، وخلال ربع قرن من تاريخ أوكرانيا المستقلة، نهبوا الناس ودمروا الاقتصاد، ناهيك عن إطلاقهم حملة دامية ضد العمال البسطاء في المناطق الصناعية في جنوب شرقي أوكرانيا (...) وهكذا، لم تقطع أوكرانيا نصف الطريق إلى الغرب حتى وقعت في الحفرة. أما ثورة الكرامة، كما يسمونها، التي قامت عام ٢٠١٤ فقد حرمت أوكرانيا من الوعي بماهيتها وجعلت منها دولة مهزومة لم تستطع الوقوف على قدمين حتى اليوم» (ص ١٧ - ٣٣٣).

يحذر الكاتب في معرض نقده للحركة القومية الأوكرانية التي أصبحت اليوم طافية على السطح وتسببت في إلحاق الأذى بسكان الجنوب الشرقي لأوكرانيا حيث مارست القتل وتدمير المساكن وتعطيل المنشئآت الصناعية وإرهاق موارد المنطقة بسبب استنزافها الجائر، يحذر من مغبة تضخم المشاعر القومية في المجتمعات وما يتبعه من انبعاث روح التشفي والانتقام فيما بين الأخوة المختلفين. وليس من قبيل المصادفة أن يكرس الكاتب بعضا من فصول كتابه لتاريخ المنظمات النازية في أوكرانيا كمنظمة القوميين الأوكرانيين وجيش المتمردين الأوكرانيين اللذان تعاونا مع الغزاة النازيين في الحرب العالمية الثانية ضد أخوتهم الروس، فما حدث من قبل يتكرر - برأيه - في حاضر يومنا.

الكتاب: أوكرانيا! وهل كانت هناك أوكرانيا؟.
المؤلف: أناتولي تيريشينكو.
الناشر: أرغومينتي نيدلي/ موسكو ٢٠١٧.
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة.

* أكاديمية ومستعربة روسية

السيكولوجية السياسية وراء الفاشية
للكاتب الهندي بي. بي. ساتيان

فيلابوراتو عبد الكبير *

مؤلف هذا الكتاب يساري معروف في كيرالا وله عشرون كتابا تقريبا في مختلف الموضوعات. منها « ألتوسير ومستقبل الشيوعية» و«شري نارايانا جورو» باني ولاية كيرالا الحديثة» و «تاريخ الجنس» و «المسرحيات الكلاسيكية العالمية» و «ما ذا يُعنى بالديموقراطة» بالإضافة إلى خمسة عشر كتاباً مترجمًا. وجدير بالذكر أنَّ هذا الكاتب قد حازت مقالته «الإسلام من وجهة نظري» على جائزة مركز الدراسات الإسلامية في ولاية كيرالا كما حازت دراسته «الإسلام الذي أعرفه» باللغة الإنجليزية جائزة على مستوى عموم الهند.

أما كتابه الجديد «السيكولوجية السياسية وراء الفاشية» فهي دراسة عميقة عن الظاهرية واتجاهاتها على خلفية الحالة السياسية الراهنة في الهند بعد صعود القوى الفاشية الهندوسية المتطرفة واستيلائها على سدة الحكم.

يقول ناشروا الكتاب إن تكتيكات الفاشية ووسائلها تتغير حسبما يتغير الزمان وإن المعرفة بالفاشية الكلاسيكية فقط لا تكفي لإدراك لون وجه الفاشية الذي يتغير حسب الزمان والمكان. فلابد من التعمق في المصطلحات الجديدة التي تظهر أمام أعين القراء. ويدعي الناشرون أن هذا الكتاب يُساعد القراء على فهم الأشكال المختلفة للفاشية التي لا تزال تتغير حسب الظروف الدولية التي تتغير باستمرار.

في هذا العمل، يناقش جيجك بواسطة «العيون» الهيجلية ثلاثة مواضيع رئيسة مختلفة: الأنطولوجي: على ضوء الاكتشافات العلمية التي تُظهر بشكل مستمر التناقضات والنقص في تصورات الإنسان عن الكون، والحقيقة، والذات، والمقدس...وغيرها من المواضيع، كما يناقش الجزء الثاني الجانب الجمالي: وعلاقته بالحداثة، والجمال، والقُبح، والجانب الموسيقي من المنظور الهيجلي، في حين أن الجانب الثالث يناقش اللاهوت السياسي ويتطرق للتحولات المختلفة في جوانب السلطة، والعادات، والعلاقات الاجتماعية. وهو في ذلك يُعرّج كعادته على الكثير من المواضيع المتداخلة، والأسماء التي تبدو متباعدة، والتخصصات التي تُعتبر تقليديا بدون روابط، وهنا مكمن قوة وأصالة أطروحات الفيلسوف السلوفيني، «التي لم تبق موضوعا على الأرض لم يكن قمحا لمطحنة جيجك الثقافية» كما قال ذات يوم الناقد الانجليزي الشهير تيري إيجلتون. وبعد الاستقلال من السلطة البريطانية حدثت تغيرات هائلة في المجتمع الهندي تأثرت بها المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الهند. وفي مقدمة الكتاب يقول المؤرخ الهندي الدكتور « ك. ان. بانيكار «إن التحولات التي مرت بها الهند بعد فترة الاستقلال كان أبرزها النمو الاقتصادي الذي أحرزته الطبقة الوسطى في المجتمع. أما الطبقات الأخرى في هذه الفترة فكانت حصتهم في التقدم زهيدة جدًا حيث ظلوا يعانون من التخلف باستمرار . وإن كان الدستور الهندي مبنياً على أسس المساواة والعلمانية والاشتراكية، إلا أنها في الحقيقة ليست إلا صورا من بقرات داخل صفحات كتاب لا تأكل العشب ولا تدر الحليب».

تلعب الفاشية في المجتمع بدورها في صورتين. أولاً بتداخلها في القضايا الاجتماعية. وثانياً بتحكم قبضتها على المؤسسات الحكومية. وفي ألمانيا وإيطاليا بسطت الفاشية نفوذها باستخدام العنصرية والكراهة الدينية. وفي الهند أيضًا نرى المتعصبين الهندوسيين يستخدمون عظمة الهند الماضية وجنون القومية العريقة والكراهة الدينية نحو الأقلية وخاصة الأقلية المسلمة لتحقيق أغراضهم السياسية. وهذا واضح في برامج وسياسات «راشتريا سويام سيفاك سنجه» المعروف باسمه المختصر «آر اس اس» الذراع اليمين الهندوسي المتطرف الذي يدير الحزب الحاكم الحالي «بهارتيبا جاناتا». ولا شك أن «آر اس اس « حزب فاشي قلبًا وقالبًا.

يقوم الكاتب في هذا الكتاب بدراسة نقدية جادة للفاشية المتعصبة التي نمت في المجتمع الهندي على خلفية النظريات والاتجاهات التي ترعرعت على مسرح العالم منذ فترة. ومن هذه الناحية قلما نجد تحليلا دقيقا باللغة المالايالمية يتناول هذا الموضوع بهذا العمق.

الكتاب في قسمين.. يتضمن القسم الأول ١٣ عنواناً، وهي كما يلي: القومية الديموقراطية والقومية الهندوسية، والهندوسية والهندوسي القديم، والفاشية الأوربية والفاشية الهندوسية: المشابهات والمفارقات، المجتمع السياسي والمجتمع المدني، الفاشية الجديدة والسلطة الحيوية، الفاشية الدقيقة والفاشية المُجسدة والفاشية التعددية، نعوم تشومسكي والفاشية الجديدة الأمريكية، الديموقراطية الانفتاحية، الفاشية الانفتاحية الجديدة، ميشيل فوكو - الانفتاحية الجديدة والسلطة الحيوية، وجهات نظر سمير أمين تنتقد، الفاشية والسلطة الشاملة، جرامشي والفاشية الإيطالية.

وفي القسم الثاني يناقش المؤلف الموضوعات التالية: السيكولوجية وراء اجتذاب الحشود نحو الفاشية، الفاشية قراءة دقيقة، «أمبيدكار» والنظام الطبقي في الهند، الجهود المبذولة ضد الفاشية، صناعة الثقافة والوسائل الشعبية. عندما نمر بهذه العناوين بهذا الحجم التفصيلي يمكننا أن ندرك عمق الموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب.

وفي الفصل الأول يحلل الكاتب المفارقات بين القومية الديموقراطية الفطرية وبين القومية الهندوسية التي تتخذها الفاشية الهندوسية مبدأها الأساسي. ويقارنها هنا بالقومية ذات البعد الدولي التي ترفعها الفكرة الماركسية ويحاول أن يثبت كيف تختلف قيمها من الأخوة العالمية والإنسانية السامية عن القومية الضيقة التي تتبناها الأحزاب الهندوسية أساساً لأفكارها الفاشية، ويرى أن النظرية الماركسية لا تحاول مثل القوى الفاشية الهندوسية أن تسلط على الناس فكرة القومية المبنية على العنصرية والاستكبار وكراهة الآخر. ويقدم أيضًا نموذج القومية الذي طوره لينين في السوفيات السابقة خلال ثورة البلاشفة حيث سمح لجميع القوميات وخاصة القوميات التي تسكن في المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى حق تقرير مصيرهم وحكمهم الذاتي. ويشير إلى أن الحزب الشيوعي الموحد في الهند بناء على هذا المبدأ قام بتأييد حركة الباكستان أيام نضال الاستقلال الهندي. صحيح أن فلاديمير لينين كان قد أعلن خلال اندلاع الثورة الشيوعية في «خطاب موجه إلى الجميع في الشرق» حق الانفصال من روسيا الكبرى بعد تحرر السوفيات، ولكن الحقائق التاريخية أثبتت فيما بعد أن هذه الوعود لم تكن إلا مواعيد عرقوب ومجرد تحركات تكتيكية. فشهدنا فور سقوط السلطة القيصرية السلطات الكرملينية الجديدة تبلع المناطق المُسلمة مثل الشيشان وتارتارستان وكازاخستان وأذربيجان وداغستان وبخارى وغيرها. حتى بعد سقوط السوفيات شهدنا كيف قامت روسيا بوتين بقمع ثورة جوهر دوداييف لتحرير الشيشان ودمرت عاصمتها جروسني بوابل من القنابل النارية كأنها بلد أجنبي بعد أن رمت المعاهدة التي تمت بين الروس والشيشان عرض الحائط. وكذلك بعد سقوط الشيوعية في يوغوسلافيا لما انبعثت العنصرية الصربية من جديد بمشاركة بارزة من قبل الكنيسة الأرثوذكسية ضد البوسناك المسلمة والكروات المسيحية وجدنا الكنيسية الأرثوذكسية في روسيا والسلطات الروسية تتعاون مع الصرب المجرم في يوغوسلافيا السابقة. وفي ضوء هذه الحقائق الواقعية من الصعب أن نعترف كاملا بمزاعم الكاتب عن الأحزاب الشيوعية بهذا الصدد ولو أن البلاشفة كان لهم دور في مقاومة الفاشية الألمانية خلال الحرب العالمية.

يسلط الكاتب في هذا الفصل ضوءًا على بعض ميزات النظم الفاشية والسلطات الشاملة، منها أن هذه النظم تعتبر الدولة والحكومة سواء بسواء، وتخلط بينهما حتى تجعل نقد الحكومة جريمة ضد الدولة وتتخذ عليها إجراءات مشددة. وهذا ما نرى الآن في الهند. وهناك آلاف من النشطاء البيئيين وأعضاء الحركات الخضراء والعاملين المنتمين لحركات الحقوق الإنسانية في الهند قد أصبحوا فريسة لإجراءات قمعية أمثال الدكتور «بينايك سين» والبروفوسور « سايي بافا « والبروفوسور «نيفيديتا مينون» و«تيستا سيتيل

فاد» وبعضهم لا يزالون حتى الآن وراء قضبان السجن مثل «سايي بافا» المصاب بالشلل والمضطر إلى الكرسي المتحرك. وما كانت جريمتهم إلا أن قاموا بجنب الفقراء والبؤساء الذين قامت الحكومة بإخلائهم من مساكنهم لصالح الشركات الكبرى باسم التنمية الشاملة بلا تميز. ويضاف إليهم كثير من الأبرياء الشبان المسلمين المتهمين بالإرهاب وهم فريسة للكراهية الدينية. والظريف أنَّ القانون الذي يطبق على هؤلاء هو قانون لمقاومة تحريض الفتن ضد الدولة (Sediction Act) الذي كان يستخدمه الاستعمار البريطاني ضد المناضلين لاستقلال البلاد والذي وصفه غاندي العظيم أنه أمير القوانين التي تقوم بقمع الحريات العامة. القوى الهندوسية لا تتردد أن تستعمل أي سلاح قانوني ولو كان عفا عليه الدهر لتسليط عظمتهم الثقافية على الآخرين. القومية الثقافية الاستكبارية الهندوسية متطورة على أساس السلطة الذكورية و «المنليثية» (Monolithic) وهي في الحقيقة ضد التعددية والثقافة الحيوية والتسامح الديني وقوة استيعاب الآخر المتجذرة في التراث الهندي منذ القدم. الهند هذه هي التي مثلها غاندي العظيم الذي كان يفتخر دائماً «كهندوسي حقيقي» وكتب تفسيرا لكتاب الهندوس المقدس «بهغافات غيثا». أما الثقافة الهندوسية الجديدة التي تحكم الهند حالياً ليس لها علاقة قريبة ولا بعيدة بهندوسية غاندي العظيم الذي كان يحترمه أيضاً قادة المُسلمين مثل مولانا آزاد العالم الجليل ووزير التربية الأسبق ومولانا شوكت علي ومحمد علي من رواد حركة الاستقلال. الثقافة الهندوسية التي يمثلها القوى الفاشية الجديدة هي ثقافة من قام باغتيال غاندي.

وفي الفصل الثاني يشرح المؤلف شرحا وافيا ليبرز كيف تختلف الفاشية الهندوسية عن الديانة الهندوسية الحقيقية العريقة ويحاول أن يثبت أن الهندوسية الجديدة إنما هي صناعة استعمارية لعب وراءها مستشرقون أمثال ويليام جونز وهينتري كول بروك وشالز ويلكينس. وهي صنيعة مبنية على القيم «البراهمنية» الطبقة العليا في الهندوس. وهي كما تقول المؤرخة اليسارية المشهورة صورة منحرفة تختلف أصلا عن الديانة الهندوسية التاريخية. وهي تحاول فرض فكرتها «المنليثية» على تعددية الديانة الهندوسية التي يتبعها السواد الأعظم في الهند منذ فترة طويلة. ومصلح الديانة الهندوسية المعروف «فيفيكانندا والشاعر الكبير طاغور وغيرهما كانوا ممن عارضوا القومية الضيقة وفكرة الدولة المبنية عليها. وهنا ينقل أقوالهما عن القومية تفصيلا من كتبهما كما ينقل آراء «جرامشي» عما يتعلق بهذا الموضوع.

وما دام الشيء يذكر بالشيء فمن المناسب مقارنة الفاشية الهندوسية بالفاشية الألمانية والنازية الإيطالية. وقد خصص المؤلف فصلاً ليفصل فيه التوافقات والتفاوتات بين الفاشية الأوربية والفاشية الهندوسية ويقول إنه ليس في وسعنا أن نقاوم الفاشية التي تطورت في بيئة الهند بصورة جيدة إلا إذا ميزناها عن صورتها الكلاسيكية التي تشكلت بعد الحرب العالمية في البيئة الأوروبية. وهذا لا يعني أنه لا توجد تشابهات بينهما. هنالك تشابهات جمة بين هاتين الفاشيتين. وينقل الكاتب بعض طبائع الفاشية من كتاب «مقالة عن الفاشية الأبدية» (Eternal Fcism Essay) للمفكر « امبرتو ايكو». ومن هذه الطبائع الإعجاب الشديد الأعمى بالتقاليد. ويضاف إليه الكراهة لحرية الفكر والمواقف العقلانية والحداثة. وهي لا تتسامح مع اختلافات الرأي. وهي مبنية على طقوسات وترهات غير عقلانية. الفاشية ترفض التعددية بلا هوادة. وتستهدف المجتمعات التي تعرضت للإحباط. ومن طبائعها العداوة للبلاد الأجنبية. وهي مشغولة بالمؤامرات ومولعة بصناعة « الآخر ». وترى الحياة نضالاً مستمرًا لاستيعاد العصر الذهبي المفقود وتزدري المرأة والأقليات الجنسية وتعرض عن المستضعفين

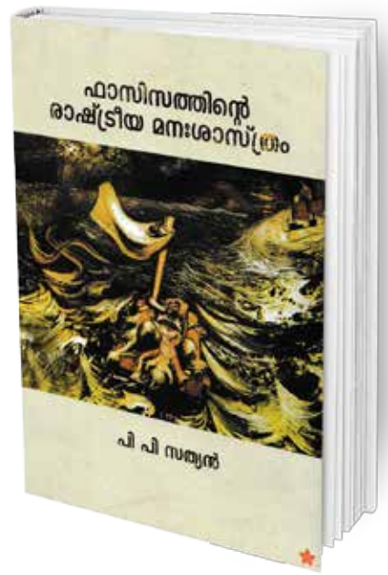

وتتصف بالسلطة الذكورية وتعد الموت أحلى أماني الحياة وتعتبر عبادة الأبطال فريضة وتحتقر المؤسسات البرلمانية. وإذا حللنا الفاشية الهندوسية المعاصرة في ضوء هذه الطبائع التي يشير إليها أمبرتو إيكو نجدها تتحقق فيها كاملة. هذه هي التشابهات التي تشترك فيها الفاشية الأوربية والفاشية الهندوسية. وأما كيف تختلف عن أختها الأوربية؟ فيشير الكاتب إلى أن أهم اختلافها عن الفاشية الأوربية هو الطبقات الاجتماعية الموجودة فيها والتي تجعل الناس على مرتبات بعضها أعلاها ولادة وبعضها الآخر أدناها في سلم الحياة حتى أنهم محرومون من الكرامة الإنسانية ومن أبسط الوسائل المعيشية. هذا النظام الطبقي الاجتماعي (Cast System) هو الذي تتميز به الفاشية الهندوسية عن الفاشية الأوربية. أما التشابه فلا ينحصر على المستوى الاجتماعي فقط بل ينتشر إلى التركيب الشخصي للقادة في الحركتين الفاشيتين كلتيهما.

الفاشية كما يعرفها « فيلهيم رايش (Wilhelm Reich) هي تصرفات غير عقلانية تصدر من نفس غير طبيعية، وهي ما نراه الآن في الهند، ولم تسبق للمجتمع الهندي حالة سيطرت عليها أفكار وسياسات غير عقلانية تبنتها أحزاب متطرفة مثلما سيطرت عليها الآن. قبل أن يتولى حزب «بهارتييا جناتا» الحكم لم يتجرأ أي حزب أن يظهر في المشهد العام بسياسات رعناء تفسد قيم التسامح الديني والتعايش السلمي القائمة في الهند طوال تاريخها الفاخر. الحكومة الحالية بقيادة الحزب المذكور أعلاه مشغولة بتنفيذ قوانين تلو قوانين تتعرض لها الأقلية المسلمة والطبقات المنبوذة تمامًا مثل حزب هتلر الذي سن قوانين عديدة ما بين فترة ١٩٣٣ -١٩٣٩ تستهدف اليهود في ألمانيا وتحاول محو آثارهم من الدوائر الحكومية والمعاهد العلمية والملاهي العامة والوسائل الإعلامية حتى أعلنت ألمانيا هتلر اليهود مواطنين بدرجة ثانية بموجب تلك القوانين المعروفة باسم « قوانين نيرنبرغ ١٩٣٣. فنجد سلسلة من القوانين وإجراءات تطبقها الحكومة الهندية مثل منع لحوم البقر وحبس موظفين قاموا بأداء الحلف باللغة الأردوية والتداخل في عقد الزواج بين هندوسية ومسلم وإلقاء العراقيل حيال اعتناق الهندوسيين عقيدة الإسلام وآخرها القانون الجديد الذي يجعل الطلاق بالثلاث جريمة بعقوبة حبس وغرامة ويمكن الشرطة اتخاذ الإجراءات مباشرة دون تلقي شكاية من أي جهة وبدون سماح كفالة ضد من يقوم بذلك.

رغم أن الكاتب يساري وأن كتابه هذا قامت بنشره دار الفكر، الناشر الرسمي للحزب الشيوعي في كيرالا فمن الملاحظ أنه لم يتردد في نقد أخطاء المنظر الشيوعي المصري في تحليل الفاشية الجديدة في كتابه «عودة الفاشية في ظل أزمة الرأسمالية والامبريالية المعاصرة». ويكتب أن سمير قد أخطأ في تحديد الفاشية في الهند كما أنه قد خفف خطورة الفاشية بربطها بالأزمة الرأسمالية. ويقول إن عنوان كتاب سمير ذاته يوحي بأن الفاشية ظاهرة سياسية غابت أو فقدت وجودها في مرحلة من التاريخ حيث تستطيع العودة من جديد. ينقل المؤلف قول سمير هكذا: «ليس من قبيل المصادفة أن يربط عنوان هذا المقال بين عودة الفاشية في المشهد السياسي وأزمة الرأسمالية المعاصرة». وهذا العالم الاقتصادي في بادئ البدء حسب قول الكاتب يرى الفاشية استجابة سياسية معينة للتحديات التي قد تواجه إدارة المجتمع الرأسمالي في ظروف مُحددة. ويشير الكاتب إلى التباين الواضح بين موقف سمير وموقف جرامشي بهذا الصدد. حين قام الأخير بتحليل الفاشية الإيطالية لم ينظر إليها كقضية تتعلق بإدارة سياسية أو اقتصادية مرتبطة بأزمة الرأسمالية. لأنَّ الفاشية إنما ظهرت في إيطاليا في صورة نظرية قومية بحتة. ويوجه الكاتب تهمة نحو سمير بأنه إنما يقوم بتقييم القضايا السياسية المعاصرة وفقاً لحدود الابيستمولوجيا التي شكلتها الحداثة الغربية الرئيسية وأنه يأبى أن يفتح عينيه إلى قوة سلطة الشعب الكامنة حيث يلجأ إلى فكرة تنام في الوعي العام بأن الحكومات هي التي تدير السلطة. وهذا المنظور الذي يخفف الفاشية كمجرد ظاهرة سياسية مجسدة (Macro Phenomenon) لا يكفي في نظر الكاتب أن يكشف عن الممارسات الأخطبوطية الدقيقة والشاملة التي تقوم بها الفاشية في المجتمع. وهو منظور سطحي وجزئي يتم من خلاله تقييم تاريخ سياسة العالم في مرحلة الحداثة ومرحلة مابعد الحداثة باقتلاعه عن التاريخ الإنساني الدقيق المتعدد المتوتر طوال القرون الماضية.

ما موقف الحزب الشيوعي في هذا الصدد؟ وهذا سؤال مهم لأن الجدل لا يزال جارياً على مستوى قيادة الحزب في تحديد الطبيعة الفاشية للحزب الحاكم في الهند، ويرى سكرتير الحزب العام السابق «براكاش كارات» أن الحزب الحاكم الحالي ليس فاشيا في معناه الدقيق ولو أن الاتجاهات الاستبدادية تتغلب فيه. ويختلف عن هذا الرأي السكرتير العام الحالي «ياشوري» حيث يؤكد أن لون الفاشية واضح في ممارسات الحزب الحاكم لأنه ليس إلا جناحا سياسيا ل آر اس اس الفاشي الذي يسيطر عليه كاملاً. بناء على هذا يطلب «ياشوري» وأتباعه في ولاية البنغال المغربي ضرورة اتخاذ موقف تعاون في الانتخابات القادمة مع حزب المؤتمر المعارض ضد الحزب الحاكم الحالي.

الأحزاب اليسارية الرئيسية لا تزال مترددة في اتخاذ موقف صارم في التعاون مع الأحزاب المعارضة الأخرى لمقاومة الحزب الفاشي الحاكم. إن الهند تسير الآن بلا شك بين تعسر اقتصادي ويأس جماعي نحو جهة ما لا يعرف الكثيرون طبيعتها ولا عنوانها على وجه الدقة. وبعد إلغاء بعض فئات ذات قيمة عالية من الأوراق النقدية وبعد تعديل التركيبة الضريبية بتنفيذ نظام ضريبة التجارة والخدمات المعروف بالاختصار الإنجليزي G S T يرى الشعب الخراب بعيونهم ويلمسونه في جيوبهم.

اسم الكتاب: السيكولوجية السياسية وراء الفاشية
المؤلف: P. P. Sathyan
لغة الكتاب: مالايالام، إحدى اللغات المحلية في الهند
الناشر: Chintha Publishers, Kozhikode, Kerala
عدد الصفحات : ١٧٢
سنة الصدور : ٢٠١٧

«المُسَاوَاتيُّ العظيم: العنف وتاريخ عدم المساواة من العصر الحجري إلى القرن الحادي والعشرين».. لوالتر شيدل

محمد السالمي *

اهتمَّ الاقتصاديون على مدى السنوات الماضية بقضايا المساواة والفقر وكيفية تقليل آثارهما. فخلال العقد الماضي، برزت عدة كتب تتناول هذه القضايا من زوايا مختلفة من قبل بيكيتي واتنكسون. وهنا يقدم والتر شيدل في كتابه المُسَاوَاتيُّ العظيم، رؤى جديدة ومهمة حول عدم المساواة، ولماذا لا تزال مستمرة حتى وقتنا الحاضر؟ ولماذا من غير المرجح أن تنخفض في أي وقت قريب؟ يطرح الكاتب تساؤلا: هل العنف الجماعي والكوارث هي القوى الوحيدة التي يمكن أن تقلل من عدم المساواة الاقتصادية؟ بالنظر في البيانات والتقصي في المراجع التاريخية؛ فالجواب هو نعم. وباستعراض التاريخ العالمي لعدم المساواة من العصر الحجري حتى اليوم، يظهر والتر شيدل أن عدم المساواة لا ينتهي أبدا سلميا. وتشير البيانات إلى أن عدم المساواة ينخفض عند وقوع الكوارث، ويزيد عندما يعود السلام والاستقرار. فمنذ أن بدأ البشر في الزراعة، ورعاية قطعان الماشية، وتمرير أصولهم إلى أجيال المستقبل، كان عدم المساواة الاقتصادية سمة مميزة للحضارة. وعلى مدى آلاف السنين، أدت الأحداث العنيفة فقط إلى الحد بشكل كبير من عدم المساواة. ودمرت مرارا وتكرارا ثروات الأغنياء من حرب التسوية والتعبئة الجماعية، والثورات التحويلية، وانهيار الدولة، والأوبئة الكارثية. ويحدد شيدل هذه العمليات ويدرسها، من أزمات أقدم الحضارات إلى الحروب العالمية الكارثية والثورات الشيوعية في القرن العشرين. واليوم، يبدو أن العنف الذي قلل من عدم المساواة في الماضي قد تضاءل، وهذا أمر جيد. ولكنه يثير شكوكا جدية بشأن آفاق مستقبل أكثر مساواة.

فوالتر شيدل هو مؤرخ نمساوي يعمل أستاذا محاضرا في جامعة ستانفورد. وقد حاز كتابه إعجاب النقاد وتم تصنيفه ضمن أفضل الكتب الاقتصادية للعام ٢٠١٧، حسب مجلة الإيكونيميست والفاينانشيال تايمز. يرسم كتابه دور الصدمات العنيفة في الحد من عدم المساواة في التاريخ البشري في جميع أنحاء العالم. يعتمد الأساس التاريخي لنمو عدم المساواة لعدة عوامل؛ منها: غياب المؤسسات، والإكراه، والديون، والضرائب المبتذلة، ومصادرة الأراضي، وخصخصة الثروة...وغيرها من العوامل. يرى شيدل أن هناك بعض الصدمات التي أسهمت بشكل واسع في الحد من عدم المساواة، أو كما يسميها «الفرسان الأربعة».

الصدمة الأولى هي الحرب؛ فهي تكلف الكثير من المال وتدمر الكثير من الممتلكات، كما أنها ترفع السلطة السياسية للجماهير الشعبية الفقيرة؛ لأنها تخدم في خطوط التجميع العسكري وكذلك القتال في الحرب. وكل ذلك يميل إلى الحد من القوة السياسية والقوى الاقتصادية للأغنياء جدا. فالحرب فترة زمنية عندما يتعين على البلد تعبئة موارد كبيرة لتنفيذ الحرب التي تأتي على حساب الاقتصاد المدني الخاص. ثم ترفع الدول الضرائب على الأثرياء؛ حيث يصبح من الصعب رفع الضرائب على الطبقة الوسطى المحاصرة، ويستحيل استخلاص المزيد من الضرائب من الفقراء. ومن الممكن أيضا اقتراض الأموال من الأغنياء، والتي يمكن أن تجعل بعض الأغنياء أكثر ثراء، كما كان الحال مع أسرة مصرفي روتشيلد، التي كونت ثروتها الأولى في الحروب النابليونية. ولكن هذا أمر استثنائي تماما. إن تدمير الممتلكات يأتي على حساب من هم أكثر الناس خسارة، أي الأغنياء. خاصة في الماضي، لم يتم ربط معظم الثروة القابلة للقياس في سوق الأوراق المالية، ولكن في العقارات والأراضي، وكما أن هذه الممتلكات يمكن أن تتضرر من جراء غارات القنابل أو غزو العدو سيسهم أيضا في تقليص ثروة الأغنياء؛ وبالتالي يؤدي إلى انخفاض التفاوت في الثروة.

وأخيرا، يتم صياغة الجماهير الشعبية في الحرب، وعندما يعودون، فإنهم يتوقعون بعض الفوائد التي تأتي في طريقهم؛ سواء كان الساموراي الياباني أو الجحافل الرومانية في توسع الأراضي، أو قدامى المحاربين الأمريكيين في الحصول على مشروع قانون جي بعد الحرب العالمية الثانية. لا يمكن للمرء أن يتصور ما يمكن أن يحدث لشرعية الحكومة إذا كان هؤلاء المحاربون لم يأخذوا نصيبهم من الغنائم. ولا شك في أن إعادة التوزيع القسري للثروة يمكن أن تقلل أيضا من عدم المساواة.

يستخدم شيدل مثال اليابان بعد الحرب من عام ١٩٤٥ مثالا للتغييرات الهائلة في الاقتصاد السياسي بعد هزيمته المهينة. نجا الإمبراطور هيروهيتو بفارق ضئيل من العقاب وأبقى العرش، وإن لم يعد مطلقا بل ملكا دستوريا. ولكن فيما يتعلق بالهياكل الاجتماعية، كان كل شيء لعبة عادلة للمحتلين الأمريكيين. وكان الأساس المنطقي لذلك هو أنه من أجل منع النظام العسكري الفاشي من أن يرتفع مرة أخرى، فإن الحيازة المركزية بين عدد قليل من اللوردات الإقطاعيين يجب أن تنتهي، وبالتالي فإن

دستور ما بعد الحرب تضمن حكما لا يتجزأ من الأرض لصغار المزارعين.

والصدمة الثانية التي أشار إليها الكاتب هي الثورة، وقد تحدث عنها بإيجاز وقد تطرق الحديث عن الثورات الشيوعية. والثورات الشيوعية أساسا تتعلق بالقضاء على الملكية الخاصة، وجمع وسائل الإنتاج، والتجريد القسري للموارد الاقتصادية، وهي التجربة في الاتحاد السوفياتي والصين وغيرها من البلدان الشيوعية. ويشير شيدل إلى الدمار الهائل الذي لحق بالثروة الحيوانية والذي أسهم جنبا إلى جنب مع جمع السوفيات في الزراعة ومعاناة لا لزوم لها. أما الصدمة الثالثة، فتتعلق بانهيار الدولة، فإذا انهارت الدولة، يتم إلقاء التنظيم الاجتماعي مرة أخرى على دولة أقل تعقيدا وأكثر بدائية. وهناك انقسام أقل في العمل، وأقل حضارة وأقل إنتاجا ثقافيا. هذا التطور يضر الأغنياء أكثر من الفقراء، لأن الأغنياء يعتمدون على مصادر الدخل التي تصبح شرعية عبر الحكومة. الحكومة لديها الرافعة لإعادة توزيع الدخل من الطبقات الشعبية إلى الأغنياء. سيدعي دعاة الحرية الآن أنه إذا لم يكن لدينا حكومة، فإن الأغنياء لن يكونوا قادرين على استخلاص الدخل عن طريق الرأسمالية المحسوبة، ولكن سيتعين عليهم العمل من أجله. ومع ذلك، ففي مجتمع أكثر بدائية من دون أحكام للممتلكات الخاصة، ليس من الواضح كيف يمكن للمرء أن يصبح غنيا. وتتطلب معظم المؤسسات الرأسمالية أحكاما صارمة تتعلق بالملكية الخاصة والأمن العام (أي الحرب)، وقوة عاملة متعلمة وصحية، وبنية تحتية عامة، وتحتاج الدولة إلى تعبئة هذه الموارد. يستخدم الكاتب مثال الصومال لإظهار أن النزول إلى الفوضى بعد إسقاط الديكتاتور كان مرتبطا بتخفيض التفاوت، لأنه لم يعد هناك أي نخب فاسدة يمكنها أن تلائم الموارد الوطنية لمصلحتها الخاصة. إن معاناة الناس من نقص التنمية هي تكلفة أخرى يجب أن يتحملها السكان، ولكن يبدو أن الفقراء ليس لديهم الكثير الذي يفقدونه بغض النظر عن النظام الذي يعيشون فيه.

أما الصدمة الأخيرة التي تطرق لها الكاتب، فهي الأوبئة القاتلة، ويمكن أن تؤدي الأوبئة للقضاء على نسبة كبيرة من السكان، وإلى الحد من عدم المساواة بطريقتين: الأولى، أن وفاة النخبة القديمة تخلق شواغر يمكن أن يملأها الناجون مما يؤدي إلى زيادة الحراك الاجتماعي؛ أما الثانية، فإن وفاة العديد من الفقراء يؤدي إلى نقص في اليد العاملة، مما يرفع من تكلفة الحفاظ على العبيد أو العمال. العديد من اللوردات يواجهون عددا أقل من العبيد وهذا يعكس فقط توازن القوى القائم في المجتمع.

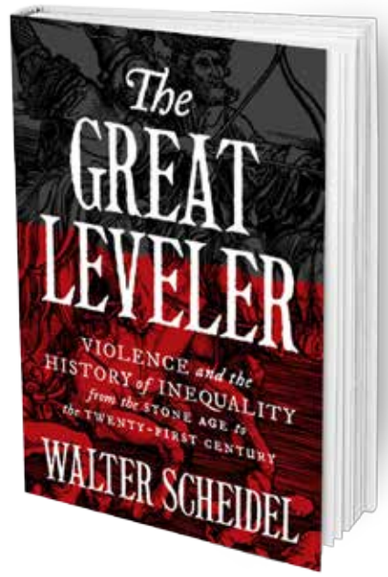

وبقدر ما يكون الخدم أقل عددا، تزداد قوتهم بالانتقال من كفيل إلى آخر، ولكي يحافظ الكفيل على الخدم والعبيد عليه أن يخفض الإيجار أو يرفع الراتب، كل منها يقلل من ربح الكفيل. وتؤدي هذه العملية إلى قدر أقل من عدم المساواة. المثال الرئيسي هو الطاعون البوبوني في الخمسينيات من القرن الرابع عشر، والذي يقول البعض إنه خلق الظروف التي مهدت عصر التنوير وعصر النهضة. وعلى أية حال، انخفض التفاوت بشكل حاد بعد الطاعون، وتراجع مرة أخرى حتى اندلاع الاضطرابات المرتبطة بالحرب في القرن العشرين.

في حين أن فخ مالتوس قد تم تصفيته بشكل كبير بين بعض الدوائر، فإنه يحتوي على بعض المصداقية، حيث يرتبط ارتفاع عدد السكان بازدحام المزيد من الناس في مساحة محدودة، والتي تمكن بعد ذلك أصحاب العقارات، الذين يشكلون أقلية أن تبقي الوضع لقيادة الجماهير المتكاثفة، الذين بالكاد لديهم ما يكفي من الأراضي للحفاظ على أنفسهم. وأشرفت إمبراطورية تشينج على زيادات كبيرة في عدد السكان وسط الأراضي الشحيحة؛ بحيث لم ير الناس أي مكاسب حقيقية للأجور حتى مع ازدياد عدد المسافرين الصينيين في الخارج للهروب من الظروف المزدحمة في المنزل. وتجدر الإشارة إلى أن أوروبا لا تزال لديها تباين إقليمي في القوة النسبية للعبيد. وأتاحت أوروبا الغربية بوجه عام مزيدا من الحرية للعبيد في التنقل وإيجاد مكان أفضل للعيش، في حين استخدمت أوروبا الشرقية القوة والقمع لضمان عدم انتقال العبيد، وفي ظل هذه الظروف لم يتم تخفيض عدم المساواة. وفيما يتعلق بالتعليم، فإن الحد من عدم المساواة عن طريق توفير المزيد من التعليم هو حلم علماء الاقتصاد وقد تطرق إليه المؤرخ شيدل. «من الصعب جدا أن يفسر الارتفاع القوي في مستوى الدخل من حيث الإشارة إلى التعليم». وعلاوة على ذلك، إذا كان التعليم ذا أهمية كبيرة، وأن الناس لا يحصلون على ما يكفي من التعليم، يجب أن يكون لدينا عدد قليل من السكان المتعلمين. وبدلا من ذلك، هناك عدم تطابق متزايد في الولايات المتحدة بين التعليم والتوظيف؛ حيث إن العمال أكثر تأهيلاً وتفوقا على العمل الذي يقومون به. ومع ذلك، فإن التعليم هو الدواء الشافي الذي يصفه بعض الاقتصاديين وكثير من السياسيين وكأنه سيؤدي إلى عدم المساواة. والسبب في أن التعليم يوصف بأنه حل لعدم المساواة هو أن هذا الترقي ينقل مسؤولية الحد من عدم المساواة من الدولة إلى الفرد، وهو ما هو عليه الحال بقوة في البلدان الأنجليكانية التي تناولت إزالة التصنيع من القوى العاملة مع ارتفاع الحضور في الجامعات، في حين لا تزال بلدان مثل ألمانيا أو الدول الاسكندنافية تلتزم بجمع الاستثمارات التعليمية في جيل الشباب. ولكن التعليم لا يتطلب أيضا تدخلات حكومية أوسع نطاقا للتخفيف من حدة عدم المساواة ويحتفظ بالأسطورة القائلة بأن الجدارة لا تولد النجاح إلا في مقابل الميراث العادي واستغلال الطبقة العاملة. غير أن الإصلاحيين البرجوازيين سيصرون على أن الانتخابات الديمقراطية والتنمية الاقتصادية سوف تؤدي في النهاية إلى التخفيف من عدم المساواة.

وعلى الرغم من النظرة التشاؤمية النسبية من عدم المساواة، إلا أن الكتاب يقدم بعداً آخر من التحليل، يرفض شيدل البدائل السلمية مثل الديمقراطية، والتعليم، والنمو الاقتصادي، والديمقراطية الاجتماعية، والنقابية، في الحد من عدم المساواة. ومن خلال الرؤية للتاريخ السياسي الاجتماعي من زاوية شيدل، يظهر أن عدم المساواة أفضل من المجتمع الذي تسوده الاضطرابات الشاسعة.

- الكتاب: «المُسَاوَاتيُّ العظيم: العنف وتاريخ عدم المساواة من العصر الحجري إلى القرن الحادي والعشرين».
- المؤلف: لوالتر شيدل.
- الناشر: (Princeton University Press)، ٢٠١٧م، بالإنجليزية
- عدد الصفحات: ٥٢٨ صفحة.

* كاتب عُماني

فرنسا: التاريخ المعاصر من الثورة إلى الحرب على الإرهاب لجوناثان فانبي

محمد السماك *

لعل أغرب قصة يرويها هذا الكتاب التاريخي هي تلك التي تتعلق برجلين عسكريين لعبا أدواراً مصيرية في تاريخ فرنسا الحديث. والعسكريان هما الجنرال ديغول، والجنرال بيتان.

يقول المؤلف إنه خلال الحرب العالمية الأولى وتحديداً بعد معركة فردان التاريخية مع الألمان والتي ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا، كتب الجنرال بيتان رسالة نعى فيها شارل ديغول. وقال في النعي: «لقد كان الضابط ديغول عسكرياً لا يضاهى في المجالات كافة».

كان ذلك في عام ١٩١٦. في ذلك الوقت كان ديغول والجنود الذين كانوا تحت إمرته العسكرية قد تعرّضوا للقصف بالغازات السامة واعتبر ميتاً مع جنوده.

غير أن ديغول نجا، ليتولى فيما بعد ومن لندن قيادة المقاومة الفرنسية ضد القوات النازية التي احتلت بلاده خلال الحرب العالمية الثانية. أما الجنرال بيتان فقد عقد اتفاق سلام مذلّ مع القوات الألمانية وشكّل حكومة فرنسية متعاونة مع هذه القوات.

كان الجنرال بيتان بطل معركة فردان يعتبر محرر فرنسا في الحرب العالمية الأولى. إلا أن هذا البطل تصدّر بعد الحرب العالمية الثانية لائحة الخونة، ليصبح ديغول البطل الذي خرج من بين الأموات.

استمدّ ديغول شعبيته من موقفه الوطني ضد الجنرال الذي نعاه قبل عدة سنوات وأغدق عليه صفات البطولة. ولما مات الجنرال بيتان لم تصدر عن الجنرال ديغول أي كلمة تأبين، ومرّ حادث الوفاة وكأن شيئاً لم يحدث !! .

رغم ما في هذه القصة التاريخية الواقعية من مصادفات، فإنها ليست الأولى في التاريخ الفرنسي المعاصر الذي بدأ مع الثورة في عام ١٧٨٩ .

واحدة من هذه المصادفات تتعلق بالمهاجرين من دول شمال أفريقيا (المغرب والجزائر وتونس) وهي الدول التي استعمرتها فرنسا طويلاً. حتى أن الاستعمار الفرنسي للجزائر تحديداً تحوّل إلى استعمار استيطاني إذ اعتبرت الجزائر جزءاً من فرنسا وليس مجرد أرض محتلة. غير أن المفارقة التي يشير إليها الكتاب هي أن الجزائريين لم يعتبروا في أي وقت من الأوقات فرنسيين، ولم يعامَلوا كمواطنين. وحتى عندما احتاج الجيش الفرنسي إلى خدماتهم في حروبه في الهند الصينية (فيتنام اليوم) فقد جرى التعامل معهم وكأنهم مرتزقة وليسوا مواطنين كاملي الحقوق. جرت «فرنسا» الأرض واستُعبد من عليها .

ويقول مؤلف الكتاب فانبي إنه في الوقت الذي تواجه فيه فرنسا في العصر الحالي صعوبات اقتصادية وتراجعاً في النمو، تجد أن عليها احتواء ملايين المُسلمين المتحدرين بصورة خاصة من دول شمال أفريقيا. وتجد نفسها أيضاً وفي الوقت ذاته في مواجهة موجة من التطرف الإسلامي التي أطلقتها «داعش» .. ووقودها شباب من هؤلاء المسلمين.

وينتقد المؤلف الكيفية التي تعامل معها الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا هولاند مع هذا الأمر، ويقول : «إن الفرنسيين أصبحوا أسرى موروثات الماضي ».

ويلاحظ أن ذلك ليس جديداً، ولا يشكل سابقة مع حركة التاريخ الفرنسي . بل إنه يكاد يكون حالة متواصلة ومستمرة. ولتفسير ذلك يعود إلى عمق التاريخ فيقول: لقد أطيح بعائلة البوربون الملكية باسم أيديولوجيات تقدمية وغير قابلة للمساومة مما عرّض البلاد إلى الدمار .

وعندما رفع روبسبير أحد قادة الثورة الفرنسية المشانق، تمنى حتى أنصار الثورة أنفسهم لو أن سلطات ما قبل الثورة تعود مرة ثانية إلى تسلّم زمام الأمر، رغم كل ما كانت تتمتع به من استبدادية وتفرّد .

وكان نابليون نتيجة مؤقتة ولكن قصيرة الأمد لذلك. أما النتيجة الطويلة الأمد فقد كانت الثقافة الفرنسية الحديثة: ديناميكية، ولكن ليس بالضرورة عقلانية كما يصفها المؤلف. ولكن مزيج من التقدمية والمحافظة.

وفي دراسته المعمقة للوضع الداخلي الفرنسي يقول المؤلف فانبي:

إن الملك لويس فيليب كان «الملك-المواطن»، كان بسيطاً ولكنه كان شجاعاً أيضاً ومتحمساً للديمقراطية . ففرنسا في عهده (في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر) كانت دولة خلّاقة، وكانت اكتشافاتها تصل إلى كل أرجاء العالم : التلسكوب، لغة برايل للمكفوفين، ماكينات الخياطة، القصص الأدبية لبلزاك، وقصائد بودلير .

ويقول المؤلف أيضاً إن نابليون الثالث الذي انتخب في عام ١٨٤٨، ونصّب نفسه إمبراطوراً من خلال استفتاء أجراه بعد أربع سنوات، أعطى فرنسا الكثير مما تفتخر به. لم يعطها فقط إعادة بناء باريس، ولكن أعطاها أيضاً مجموعة هامة من الاكتشافات العلمية: التخمير، الزيوت النباتية، البطاريات، الدراجات الهوائية، والحقن الطبية.

ويتحدث المؤلف أخيراً عن ديغول الذي قاد المقاومة الفرنسية ضد النازية حتى أصبح منذ عام ١٩٦٠ الرئيس الفرنسي الأكثر نجاحاً الذي أنتخبته فرنسا على مدى ٢٠٠ عام من تاريخها، وهي الفترة الزمنية التي يغطيها هذا الكتاب .

ربما يكون من الطبيعي أن يغدق المؤلف هذا المديح الحاد على الجنرال ديغول، فقد سبق له أن أصدر كتاباً عن حياة هذا الجنرال الرئيس صدر في عام ٢٠١٢ .

فالمؤلف لا يخفي إعجابه بكل ملك أو رئيس اعتلى مسرح السلطة في فرنسا ونجح في التزاوج

بين المحافظة على التقاليد وتحقيق التقدم . ذلك أن التقدم ليس خصماً حتمياً للتقاليد . بل إن المزاوجة بينهما، رغم صعوباتها الكبيرة، فإنها تحفظ للمجتمع شخصيته وأصالته، وتمسك بيده في معارج الرقي والتقدم في الوقت ذاته (وهنا أسمح لنفسي كدارس لهذا الكتاب أن أشير إلى تجربتين رائدتين من هذا النوع في العالم العربي نجحتا في المزاوجة بين الحداثة والتقليد هما تجربة سلطنة عمان والتجربة المغربية).

وينتقد المؤلف الملك شارلز العاشر بسبب تعصبه وتشدده الدوغماتي، مما أدى إلى ثورة تموز - يوليو ١٨٣٠. ويصفه بأنه كان شخصية ضعيفة فارغ العقل. يفتقر إلى الرؤية وإلى الجرأة لفرض إرادته عندما يتعرض للاختبار .

أما الرئيس الأسبق فرانسوا ميتران الذي تولى رئاسة الدولة الفرنسية في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، فيقول عنه إنه لم يكن رجل مبادئ؛ ويحمّله مسؤولية تراكم الأعباء الاقتصادية التي أثقلت كاهل الدولة طوال عقود ثلاثة.

يعزو المؤلف جوناثان فانبي البداية الأولى لهذه التحولات إلى تسوية ما بعد نابليون والتي أبرمت في مؤتمر فينا (النمسا) . فقد زرعت في النفس الفرنسية شعوراً بأن فرنسا أرض محتلة. وهذا الشعور، كما يؤكد المؤلف، جعل حتى من سلطة معتدلة كالتي مارسها الملك لويس - فيليب، سلطة مستبدة.

وهنا يشيد المؤلف بما وصفه «حنكة» المستشار الألماني أوتو فون بيسمارك، الذي تعامل مع مخططات نابليون الثالث لاستعمار أفريقيا والشرق الأقصى، على أنها تساعد على تقوية ألمانيا في أوروبا.

وبالفعل في الوقت الذي كانت فيه فرنسا مشغولة بالتوسع في أفريقيا وفي إقامة المستعمرات، كانت ألمانيا تعزز قدراتها داخل أوروبا تحديداً .

ويلاحظ المؤلف أيضاً أن تراجع عدد سكان فرنسا لم يبدأ في عصرنا الحالي (بسبب الهجرة) ولكنه بدأ قبل أكثر من قرن من الزمن بسبب ما سماه الضعف العسكري .

ففي الحرب الفرنسية - البروسية التي وقعت في عام ١٨٧٠ كان عدد سكان كل من فرنسا وألمانيا متساوياً بالنسبة للرجال ما بين سن العشرين والرابعة والثلاثين. ولكن مع بداية الحرب العالمية الأولى، تمكنت ألمانيا من تجنيد ٧،٧ مليون مقاتل في عمر الشباب، بينما لم تستطع

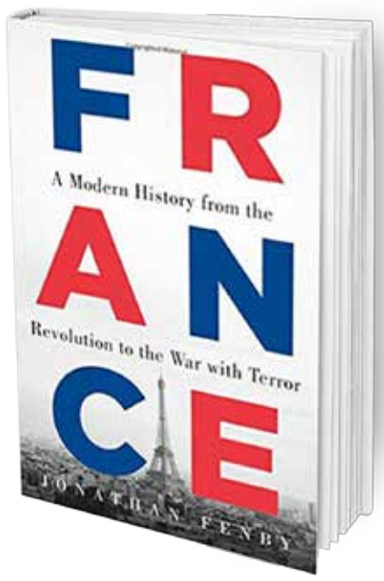

فرنسا تجنيد سوى ٤،٥ مليون فقط .

وهنا يذكر المؤلف أنه خلال الحرب الفرنسية - البروسية حاصر الألمان باريس طويلاً، وانتشرت فيها المجاعة، حتى اضطر الناس إلى إخراج الحيوانات من أقفاصها في حدائق الحيوان وذبحها في الشوارع لتقاسم لحومها.

وبعد أن نشبت ثورة عام ١٨٤٨ عرفت باريس حركة فوضوية مدمرة، وكان على رأسها شاب فرنسي كان يستخدم كنموذج -موديل- للمسيح عليه السلام؛ وقد استخدمه العديد من الرسامين والنحاتين. وكانت نهايته رصاصة في الرأس أطلقها عليه أحد الجنود الفرنسيين.

ويسرد المؤلف وقائع المآسي التي عرفتها فرنسا، ويتوقف طويلاً أمام المأساة التي وقعت في عام ٢٠١٥ في العاصمة باريس على يد عناصر إرهابية.

ويدخل إلى عمق الواقع الفرنسي الحالي، فيقول إن ظاهرة الجبهة الوطنية التي تزعمتها مارين لوبن اليمينية المتطرفة، لم تنطلق من حسابات سياسية منطقية، ولكنها جاءت نتيجة تفاقم مشاعر أولئك الذين يشعرون بأنه جرى التخلي عنهم من قبل السلطة السياسية في الحكومات المتعاقبة. ويقول إن هؤلاء بحثوا عن بطل يتفهم معاناتهم وينقذهم مما هم فيه. أما ما هي طبيعة هذه المعاناة فإن المؤلف آثر عدم التحدث عنها أو الإشارة إليها من قريب أو من بعيد .

ويؤكد المؤلف في الفصول الأخيرة من كتابه الذي يعرض فيه لتاريخ فرنسا المعاصر، وللمراحل المتداخلة التي عرفها هذا التاريخ من صعود وهبوط، على أمر أساسي وهو «إن الثورات حبلى دائماً بردات الفعل» . وهناك نظرية في علم الاجتماع تقول «إن الثورة تأكل أبناءها»، وهو ما عرفته الحركات الثورية في فرنسا وروسيا وحتى في أمريكا. ويقول المؤلف إن كل نظام جديد يقول بالحرية والمساواة يحتاج إلى سلطة وإرادة، وإن هذه تؤخذ من مصادر ما قبله من سلطات التي تكون قد اختبرت بالتجربة وتعرفت على الحقيقة أو على الأقل على جانب منها .

وهنا ينقل المؤلف فانبي عن مؤرخ الثورة الفرنسية ألفونس أولار قوله في عام ١٨٨٥: «كم كانت الجمهورية الفرنسية رائعة في ظل الإمبراطورية «!!.

تتلاقى هذه العبارة بكل ما تحمله من تهكم على الحركات الثورية مع الخلاصة العميقة التي وصل إليها المؤلف في عرضه لتاريخ فرنسا الحديث. ومفادها أن الحرية قيمة غير قابلة للاحتكار .. وأنها ليست وقفاً على مواطنين -داخل الدولة- دون الآخرين من الناس .. داخل الامبراطورية .

وبالتالي فإن مصادرة الحريات هي التي أشعلت الحركات الوطنية الاستقلالية في الدول التي كانت تحتلها فرنسا، من الجزائر على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط .. إلى «الهند الصينية» في أقصى آسيا.

وهنا يحذر المؤلف من حصر الحق بالحرية بالمواطن «المتحدر من أصول فرنسية» وتقييدها على المواطن الذي يتحدر من أصول أخرى. وهذه «ظاهرة مرضية» لا تقتصر على فرنسا وحدها .. ولكنها بدأت تتفشى في العديد من المجتمعات الأخرى في أوروبا والعالم. ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب من حيث المضمون ومن حيث التوقيت معاً.

اسم الكتاب: فرنسا: التاريخ المعاصر من الثورة إلى الحرب على الإرهاب

France : A Modern history From The Revolution To The War With Terror.

اسم المؤلف : جوناثان فانبي Jonathan Fenby

اسم الناشر : سانت مارتن للصحافة St. martin Press

تاريخ النشر : ٢٠١٧

عدد الصفحات : ٥٣٦

*** مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي**

النار والغضب: من داخل بيت ترامب الأبيض لميكائيل وولف

محمد الشيخ *

قيل لـ «بُهْلول» - وهو شخصية شهيرة من شخصيات التراث العربي الإسلامي لخص قصته الذهبي، فقال: «وُسْوِسَ فِي عَقْلِه، وَمَا أَظُنُّهُ اخْتَلَطَ، أَوْ قَدْ كَانَ يَصْحُو فِي وَقْتٍ، فَهُوَ مَعْدُودٌ فِي عُقَلاءِ الْمَجَانِينِ، لَهُ كَلامٌ حَسَنٌ، وَحِكَايَاتٌ» .: «أَتَعُدُّ المجانين؟ » قال: «ها يطُولُ ولكني أعدُّ العُقَلاء!» والحال أن «مجانين الحكم» الذين «جُنُّوا على الحكم» كثير يصعب عدهم، نذكر منهم فقط حاكم فلورنسا في عصر النهضة الواعظ الديني سافوناورلا (١٤٥٢- ١٤٩٨) والذي في عام ١٤٩٧ أقام هو وتلامذته محرقة في ساحة من ساحات المدينة لكل ما اعتبره دليلا على عُجْب وغرور سكان فلورنسا، فكان أن أرسل أتباعه يدقون بابا بابا يفتشون عن كل ما اعتبره أدوات فساد روحي: المرايا والعطور واللوحات غير المحتشمة والكتب غير الدينية والدواوين الغزلية والألعاب والثياب الفاخرة ...

لكن دعنا نعد مجانين الحكم الذين «جُنُّوا في الحكم»: بدءا بنيرون والحاكم بأمر الله حتى القذافي... نلمع منهم على سبيل المثال إلى الملك غريب الأطوار الملك لودفيغ (١٨٤٥-١٨٨٦) ملك بافاريا الذي أُعلن مجنونا (١٢ يونيو ١٨٨٦) ومات يوما واحدا بعد وضعه في مشفى المجانين. وما زال تقليد الجنون في الحكم سائرا. إذا ما نحن صدقنا صاحب كتاب «النار والغضب: من داخل بيت ترامب البيضاوي» الصحافي الأمريكي ميكائيل وولف . (٦٤ سنة) مولود بنيو جرزي ومقيم منذ أمد بنيويورك، حاصل لمرتين على جائزة المجلة الوطنية قسم التعليق (٢٠٠٢-٢٠٠٤). وهو صاحب كتب عبارة عن تحقيقات صحفية أشهرها كتابه الذي ألفه عام ٢٠٠٨ والذي خصصه إلى روبرت مردوخ (الرجل الذي يملك الأخبار: داخل عالم روبرت مردوخ السري» . فإن الرئيس الأمريكي الحالي آخرهم وليس أخيرهم.

بعد الانتخاب المفاجئ للمرشح المتمرد على المؤسسة السياسية، بما فيها حتى مؤسسة حزبه، والذي كان قد استجوبه وولف في يونيو من عام ٢٠١٦، طلب الصحافي من الرئيس السماح له بالنفاذ إلى البيت الأبيض؛ الشيء الذي لم يرفضه له الرئيس. وبهذا أمسى الصحافي «ذبابة على الحائط» بحسب تعبيره، وقد ذاب في الديكور. في عام ٢٠٠٤ كانت قد صورت الصحافي إحدى المجلات على أنه: «في شق منه كاتب افتتاحيات محب للحياة، وفي شق آخر معالج نفسي، وفي شق ثالث عالم أنثروبولوجيا اجتماعية يدعو قراءه إلى أن يمسوا ذبابة على حائط دائرة أهل المال والنفوذ الأولى».

وأغلب الظن أن عنوان الكتاب مستوحى من «التغريدة» الشهيرة للرئيس الأمريكي دونالد ترامب ضد خصمه رئيس كوريا الشمالية كيم جونك-أون مهددا إياه ببعث الصواعق المرسلة على الكورية، متوعدا له بصب النار والغضب على بلاده. يطرح الكتاب الأسئلة التالية ويحاول أن يجد لها جوابا: هل الرئيس الأمريكي رجل أبله؟ هل كان يرغب في أن يُنتخب رئيسا؟ هل هو ذو عقل سليم أم أنه رجل مجنون؟ هل يحركه ويسخره مستشاروه؟ وهل أبناؤه وصهره أوفياء له؟ يفتتح صاحب الكتاب كلامه بذكر دواعي تأليفه. ويذكر أنه بعد تنصيب ترامب رئيسا في يوم ٢٠ يناير ٢٠١٧ أمسى البلد في قلب عاصفة سياسية استثنائية لم يشهد لها نظيرا منذ على الأقل فضيحة واترغيت (١٩٧٢-١٩٧٤)، وأن مناسبة قرب حلول الذكرى الأولى لتنصيب الرئيس الجدد تستدعي وقفة تأملية.ويذكر المنهج الذي اعتمده في الكتاب وهو منهج النظر إلى الحياة في البيت الأبيض من خلال عيون أناس مقربين منه. وقد تم تصور الكتاب برمته على شكل مرويات عن إدارة ترامب بدءا من المائة يوم الأولى من حكمه، بما هي الأمارة التقليدية الدالة على طبيعة ولاية رئاسية معينة كما درجت العادة على ذلك. لكن الأحداث مضت في انسياب لأزيد من مائتي يوم إلى أن حدث أول عمل فاصل في إدارة ترامب تمثل في تعيين الجنرال المتقاعد جون كيلي رئيسا للفريق الرئاسي أواخر شهر يوليوز، وخروج الاستراتيجي الأول في إدارة ترامب ستيف بانون ثلاثة أسابيع بعد ذلك. ويخبرنا المؤلف أن الحوار الأول مع الرئيس جرى قبل فوزه وولوجه إلى البيت الأبيض، فضلا عن التفكير في إنجاز كتاب حول هذا الأمر، وذلك في شهر مايو ٢٠١٦ ببيت ترامب. وحسب ما يحكيه وولف، فإن ترامب بدا سعيدا في التحدث في مواضيع شتى، بينما كان معاونوه يقطعون الغرفة جيئة وذهابا.. إلى أن صار الصحافي يحضر حضورا شبه دائم جلسات الفريق. ومنذ حينها يذكر أنه أجرى أزيد من مائتي مقابلة مع أعضاء الفريق والمقربين. ويشير وولف إلى أخلاقيات الصحافة التي وجهته في تأليف الكتاب: حتى بعد أن صار هو قريبا من ترامب وفريقه، فإنه لم يقبل أن يلعب أي دور . يقصد مثلا في تلميع صورة الرئيس، أو إسداء النصح .... لا ولا هو سُئل حول ما إذا كان سيكتب شيئا . يخرج كتابا مثلا . وما الذي سوف يكتب فيه. وهنا يقر الصحافي، بداية، بأن العديد من المرويات التي ضمها الكتاب حول ما جرى بدت متعارضة. ويرى أن هذه التباينات في المرويات . ومن ثمة التنازع مع ما حدث بالفعل في الواقع ومع الحقيقة . تشكل عنصرا جوهريا يطبع الكتاب بأكمله. ومرد هذا التنازع ترك المؤلف الفاعلين الأساسيين يروون مروياتهم من وجهة نظرهم الخاصة، مسلما أمر الحكم على هذه المرويات وتقويمها للقارئ، كما أنه في أحايين أخرى رجح مروية على أخرى بناء على معيار مدى تماسك المروية ومصداقية راويها.منذ ديباجة الكتاب، تبدأ ترتسم بعض ملامح شخصية ترامب. وهي ملامح يرسمها رودجر آيلس الرئيس الأسبق لفوكس نيوز والوجه البارز في إعلام اليمين ومستشار بانون، في لقاء له بهذا يوم ٤ يناير ٢٠١٧ أياما قليلة بعد تنصيب الرئيس الجديد، وذلك حين يذهب إلى أن ما يعجبه في الرئيس صفات أربع: روح التاجر الذي يحذق «فن الصفقة» . وهو اسم كتاب لترامب، وروح المتفاخر المتباهي الميال إلى النزعة الاستعراضية، وروح ذاك الذي يمشي بنميم ويريد أن يتلصص على أحوال غيره ويتناقل أسراره، وحس فائق بما يدور في أسواق المال. تلقاء ذلك كان آيلس . الذي عرض عليه ترامب إدارة حملته فأباها وحملها بانون . مقتنعا بأنه لم تكن لترامب أية قناعات سياسية أو أية خلفية سياسية، ولم يكن ليصغي إلى أية نصيحة، أو أن يسمح بها بالأحرى، كما أنه لم يكن منضبطا ولا قدرة له على اتباع خطة محكمة، ولا يمكن أن يكون طرفا في أي تنظيم، ولا أن يتبع أي برنامج أو أي مبدأ. وبالجملة، بالنسبة إليه، كان ترامب «رجلا متمردا بلا قضية».

على أن المؤلف يذكر أن ولاءات الرجل الفكرية والإيديولوجية ليست عن إسرائيل بمبعد. إذ يتم اختيار كبار الموظفين . مثل التداول حول اسم بولتون ممثل الولايات المتحدة بالأمم المتحدة سابقا . على أساس ما إذا كان صالحا بالنسبة إلى إسرائيل، على نحو ما ورد في الحوار الذي دار بين بانون وآيلس. كما أنّ الأول يذكر أن البرنامج البدئي للإدارة الجديدة هو نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، وذلك بإيعاز من المدافع الأكبر عن إسرائيل وعن ترامب شيلدون أندرسون الذي ساعد ترامب في حملته بإمضاء شيك بقيمة خمسة وعشرين مليون دولار. وحين يتساءل آيلس متشككا يجيب بانون: «دع الأردن يأخذ الضفة الغربية، ودع مصر تأخذ غزة. دعهما يتعاملان مع الأمر، أو يغرقان وهما يحاولان. فأما السعوديون، فإنهم على شفا الانهيار، وأما المصريون فإنهم على حافة الهاوية، لكنهم جميعا يرتعشون رهبة من بلاد فارس ...».

ومدار الكتاب على الرئيس وفريقه. وما يعيبه الكاتب على هذه الإدارة ستة أمور أساسية:

أولا؛ عدم تصديق فريق ترامب فوزه بالانتخابات:

هذه لازمة تتكرر على لسان أعضاء من فريق ترامب، ولا يتردد المؤلف في جعلها أولى الحقائق عنده. ما كان آيلس، ولا حتى بانون، يحملان محمل الجد ترشح الرجل، فبالأحرى فوزه. لكن، ما أن فعلها الرجل، حتى صار بانون يؤمن بأنه أمسى أمام تحديات العولمة والهجرة.. وأنه لا بد من تبني خطاب جديد: العالم يحتاج إلى حدود، أو قل العالم يحتاج إلى العودة إلى زمن كانت فيه حدود.

ولهذا أنت واجد الفصل الأول يدور على أجواء الريبة التي رافقت ترشح ترامب والذي يعده المؤلف أسوأ مرشح في التاريخ السياسي الحديث. حتى مديرة حملة ترامب كانت تتوقع هزيمته، وإن كان يُتَوقع أنها لن تكون هزيمة قاسية، وإنما هزيمة بطعم الانتصار.

وحتى لما سأل سام نونبرغ الرئيس: «أتريد أن تكون رئيسا؟». وهو سؤال مختلف عن السؤال المعتاد: «لماذا تريد أن تكون رئيسا؟». لم يتلق منه جوابا. والحقيقة أنه سؤال لا يحتاج إلى جواب: كان يعتقد أن الرجل لن يكون رئيسا، وكفى! لربما أقصى ما كان يطمح إليه هو أن يصدق عليه قول صديقه القديم آيلس: لئن أنت أردت أن يكون لك مسار متميز في التلفزيون، فإن عليك أن تترشح للرئاسة! لربما الوحيد الذي كان يصدق بالانتصار الذي بدا أشبه شيء يكون بمزحة هو ترامب نفسه الذي كان يعتبر الرئاسة «أكبر حلم حلمه». ولربما هو نفسه لم يكن يصدق نجاحه حتى أنه وعد زوجته بأنه لن يكون رئيسا. وإنها لقصة رجل أعمال بلغت به القناعة بعدم نجاحه حد أنه رفض أن يستثمر أمواله في حملته الانتخابية.

وبالجملة، كان ترامب ومعاونوه في الحملة مستعدين لكي يخسروا بالنار والغضب. ومن هنا عنوان الكتاب. لكنهم لم يكونوا مستعدين لكي يفوز. ويعلق وولف: في السياسة لا بد من أن يخسر طرف معين، لكن كل طرف يعتقد أنه يمكنه أن يربح، ويحتمل أن الطرف الآخر لا يمكنه أن يفوز إلا إذا اعتقد في الفوز. اللهم إلا في حملة ترامب. ولقد ذكر ابن ترامب لأحد أصدقائه بأنّ أباه ظهر لما أعلن عن فوزه كأنه إنسان وقد بدا له شبح، كما أنّ زوجته ذرفت الكثير من الدموع تلك الليلة لا فرحًا بنجاحه وإنما حزنا عليه.

ثانيا؛ جهل الرئيس بالكثير من الوقائع وانعدام خبرته:

يرى المؤلف أنّ مسار ترامب إلى الرئاسة اختلف عن مسار معظم رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية. هؤلاء كانوا يتهيؤون للفوز، ومن بعدها للحكم، أما هو ودائرته فقد اعتقدا بإمكان جني ثمرة الرئاسة من غير أن يغير سلوكه أو نظرته إلى العالم: «ليس لنا أن نكون شيئا آخر غير ما نحن إياه، لأننا بطبيعة الحال نريد أن نفوز». ولقد كان لباقي الرؤساء فريق معاون شاخ في السياسة وخَبِرَ الحكم، إلا هو. إذ المقربون منه ما اشتغلوا بالسياسة قط. ومن هنا حدث الارتجال الذي حكم انتقاء الفريق الجديد الذي كان في أغلبه بلا خبرة سياسية أيّاً كانت. ولم تكن للرجل النيويوركي أدنى معرفة برجال السياسة وخبرائها بواشنطن، ولم يكن يعرف كيف يفرق بين إدارة «إمبراطوريته» وإدارة دولة. وهكذا، فإنّه عندما بدأ مساره في الرئاسة ما كان له تقريبا أي صديق من السياسيين، باستثناء رودي جولياني وكريس كريستي، وحتى هذان كانا شديدي الانعزال عن الطبقة السياسية. ويرى المؤلف أنه تقريبا كل الملتفين حول ترامب إثر فوزه المفاجئ يعلمون أنّه لا يعلم شيئا، اللهم إلا العمارات التي شيدها، وكل ما يعرفه حين يحدث أن يعرفه فإنما لم يعرفه إلا في آخر نصف ساعة، وأن رأيه يكون دائما فطيرا غير خمير. فما كان ترامب من أصحاب الذهنية التحليلية الذين يقبلون على القضية بتقليب جميع وجوهها، وإنما هو رجل ذو عقلية حدسية يهجم على القضية دونما تدبر، ولا يستطيع أن يدلل على الأمر بالإحصاء الدقيق، بل لا يعرف حتى كيف يقرأ البيانات. ومع ذلك وجد بعض حواريه أن في ذلك بالذات تكمن قوة شخصيته، وأنه لقادر على حملك على الاعتقاد في ما يراه أو يريده.

أكثر من هذا، يذكر وولف أن الرئيس كان لا يدرك العديد من بنود الدستور الأمريكي. بل يذهب إلى حد تشكيكه في أنه كتب كتابه الموما إليه سلفا «فن الصفقة» بل يرى أنّه لم يسهم فيه إلا قليلا، بله لم يقرأه بأكمله، على نحو ما أكد طوني شواتز شريكه في تأليف الكتاب. وإذ كان قد دأب أغلب الرؤساء قبل انتخابهم

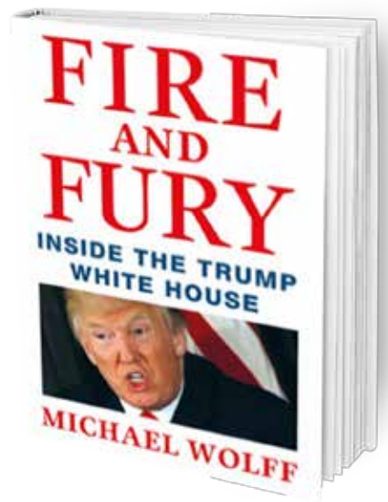

على أن يلقوا نظرة فاحصة على أنفسهم ويراجعوا ذواتهم، فإنه ما كان ترامب ليبذل مثل هذا الجهد. يتساءل المؤلف: ولِمَ كان عليه أن يبذل مثل هذا الجهد وحظوظه للفوز ضئيلة؟ ومَاذا لو خسر هو وفريقه؟ ويتسلى الكاتب بتصور مصير ترامب وصحبه لو لم يفوزوا في الانتخابات: التجارة والأسواق المالية...

إن كان الرجل جاهلا فتلك مصيبة، وإن كان مصرا على جهله فالمصيبة أعظم. ففي اليوم الأول من الحكم، كان أغلب أعضاء الفريق يشتكون من أن الرئيس لا يعمل بالنصائح، وإنْ حدث أن عمل بها؛ وهذا أمر نادرا ما يحدث. فإنّه سرعان ما يَمل وينكفئ إلى طبيعته الأولى. إذ يمكنك أن تقول له ما تريد، لكنه يعلم ما يعلم، وإذا كان ما قلتَه يتعارض مع ما يعلم، فإنه بكل بساطة لا يصدقك. حتى أنّ المؤلف ينقل عن أحد أقرب مقربي الرئيس أنّه لكي نؤثر في الرجل يلزم للمرء أن يكون حاضرا دوما معه، وإلا افتقده. فليس يقدر ترامب على النقاش؛ أي على تبادل المعلومات أو المحادثة من خلال تمثل وجهات نظر متباينة. ولا يصغي حقيقة إلى ما يقال له، فبالأحرى أن يحفظ ما يقال له. وهو يطلب منك أن تنصت إليه، ولكن عندما تمتثل يجدك ضعيفا ويتهمك بأنك تركع أمامه. إنه أشبه ما يكون بمعبودة للجماهير، دائما تعيش على هواها، وتحتاج إلى أن تُحابى باستمرار.

ثالثا؛ سوء اختيار الرئيس لفريقه:

دار جدل حول كل شخص من الذين اختارهم الرئيس لفريقه ما بين مؤيد ومعترض ومنتقد ومحذر.. والمثير في اختياراته إرادته إدارة الدولة كما تدار شركة عائلية، بحيث ينظر إلى العالم نظرة عاقد صفقات، حتى أنّه وضع صهره وبنته وبعض أفراد عائلته في أماكن حساسة، وحتى صارت البنت تطمح إلى أن تلعب هي وزوجها دور كلينتون وزوجته.

لا توجد أبدا في عهد ترامب إدارة حقيقية تدير البيت الأبيض، لا أحد يعلم ما المطلوب منه وما الذي ينبغي عليه أن ينهض به، إنما الكل يريد جلب اهتمام الرئيس. لم يكن الأمر يدار على المهام وإنما على الاستجابة. كل ما كان يثير انتباه الرئيس تركز عليه حاشيته. وحدثت صراعات مريرة بين كبار موظفي البيت الأبيض ومستشاريه. بريبيوس وبانون وكوشنر. حول من يدير الأمر من وراء ستار الرئيس. وقد دفعت وولش ثمن هذا النزاع الخفي: ما أن يصدر إليها واحد منهم أمرا حتى يلغيه أحد الإثنين. والرئيس من وراء هذا يشتكي من الجميع، وله رأي سيء عن الجميع.

ولا يلقي الرئيس بالا إلى تعارض مصالح «التاجر» و«الرئيس» فيه، بل يعتقد أنه إنما انتخب بسبب ذلك؛ أي لمعرفته بعالم الأعمال، ولعلاقاته التجارية، ولتجربته ولعلامة شركته..

رابعا، حمق الرئيس:

ينقل المؤلف رأي روبرت مردوخ في ترامب: «إنما ترامب رجل شعبذي أحمق»، وهو في أفضل الأحوال: «أمير مهرج بين الأثرياء والمشاهير». وقد قال عنه صديقة الملياردير توماس باراك بأنه ليس فقط أحمق، وإنما هو رجل بليد. وحمقه هذا المفترض يؤثر على إدارته لشؤون الدولة. فهو لا يميز بين المعلومات التي تصله، ولا يقرأ، بل حتى لا يلقي نظرة عجلى على المكتوب الذي قدم إليه. وبعضهم زعم أنه لا يعرف سوى القراءة والكتابة في أبسط أحوالهما لا شيء أكثر. ولكنه لا يؤمن إلا بخبرته، حتى ولو بدت مضللة أو غير ذات صلة بالموضوع. لا يؤمن إلا بما تقول له أهواؤه. كانت تقول عنه كاتي وولش. وهي الرقم الثاني في الحزب الجمهوري وقد أصبحت السكرتيرة العامة المساعدة في البيت الأبيض قبل أن تستقيل في مارس ٢٠١٧: «الأمر أشبه ما يكون برغبتنا في فهم ما يرغب فيه طفل». ويكشف الكتاب بعض الأسرار التي تدل على أن الرجل غريب الأطوار: إدمانه الاتصالات الهاتفية اليومية الوسواسية بأصدقائه الأثرياء مشتكيا لهم، خوفه المرضي من أن يتم تسميمه، ولعه المرضي بماركة شامبو هي التي أعطت لشعره اللون الذي يظهر به.. اعتقاده أن البيت الأبيض مكان مخيف، بحيث انعزل في غرفته، وطلب شاشتين فضلا عن الموجودة، ووضع مزلاجا تحت الباب، مواجها بذلك رجال المخابرات الذين ألحوا على أن يُبقي لهم حق الولوج إلى الغرفة، نهره الخدم على جمعهم قميصه من على الأرض قائلا: «لئن كان قميصي على الأرض، فلأنني أريده على الأرض»، ثم وضعه قواعد إتيكيت جديدة: لا أحد يمكنه أن يمس أي شيء، لا سيما فرشاة تنظيف الأسنان (يخشى أن يتم تسميمه، ولذلك كان يتناول طعامه عند ماكدونالدز لأنّه لا أحد يعلم أنه سيأتي إلى ذلك المكان ومتى).. وفي المساء أنت تجده دائما مستلقيا على سريره وفي يده شيزبورغر يتفرج على شاشاته الثلاث ويهاتف. كان التلفون نقطة اتصاله الحقيقية مع العالم. طائفة من أصدقائه المقربين..

خامسا؛ ميل الرئيس إلى النجومية: أنا مشهور إذن أنا موجود:

نقل المؤلف. في الفصل المعنون «برج ترامب». عن أحد معاوني الرئيس تساؤله: «هل ترامب شخص جيد، شخص ذكي، شخص مقتدر؟» ويجيب: «لست أعلم من هذا الأمر شيئا، وكل ما أعلم أنه نجم». ويعلق صاحب الكتاب في فقرة سبق أن ألمعنا إليها يخصصها للتشكيك في ما إذا كان قد كتب ترامب حقا كتابه: ما كان الرجل بكاتب، وإنما هو ممثل -مخاصم منازع جُدَلة بطل- إنه شخص درامي بالدرجة الأولى. رجل يحيا وهو يمثل، حتى أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغائب لا بضمير المتكلم، فلا يقول، مثلا، «فعلت كذا...»، وإنما يقول: «فعل ترامب كيت وكيت...». ولربما كان الرجل، حسب بانون، ممثلا، إلا أنّه يمثل دور رجل مجنون! وبهذا الصدد، يقارنه وولف بلاعبي المصارعة الأمريكية، بهولك هوغان مثلا، من معبودي الجماهير. وهو مثلهم «شخص وهمي من الحياة الواقعية». إذ يلعب ترامب، يصعد وينزل من الحلبة، كما لو كان ممثلا أو مصارعا في عرض. يقول عنه مستشاره القديم بانون: «هذا الرجل لا يتوقف عن أن يكون دونالد ترامب». فشخصه يجمع بين «حَميَّة» استوديوهات التلفزيون، والواعظ عبر الشاشة، والمصارع الأمريكي، والمعلق في اليوتوب، بحيث يقدم لنا عرضا بلا بداية وبلا نهاية... لا يوجد

ترامب الحقيقي، بل هو فقط ذاك الرجل وسط المشهد.

وحتى يوم حفل تنصيبه أراد الرجل أن يلعب دور النجم، وما كتب له فعل ذلك بسبب مقاطعة العديد من المشاهير لحفل تنصيبه، وما اعتبره إهانة من الرئيس السابق له في لقائهما؛ مع أنه كان يريد أن يكون الشخص المعروف أكثر من غيره في العالم، يريد نجوما ناطقين باسمه، لكن الرئيس - في جنون عظمته- ظل متشبثا بنجاح الحفل، ووجد من يدغدغ عواطفه بذلك النجاح الموهوم. ويعلق المؤلف: لكن الرجل بقي متفائلا، لأنه من شأن أخلاقيات التاجر أن يبقى متفائلا مهما يكن الحال، حتى لا يفلسه تشاؤمه. يبدو ترامب في كتاب «النار والغضب» مهووسا بالشهرة. لقد أصبح الرجل نجم تلفزيون الواقع الذي أنشأه حول نفسه، وتبنى نظرية تقول: ليس ثمة من خير أسمى من الشهرة. أن تكون مشهورا هو أن تكون محبوبا أو على الأقل أن يجاملك الجميع.

خامسا؛ تهتك الرئيس

لا يكف المؤلف عن الغمز بكون الرئيس ما اكتفى بأن يكون خِدْن نساء ولا حِدْث نساء ولا جِلْس نساء وإنما هو زير نساء بلا مدافعة، يعتبر النساء ميدَاليات يُفاز بها أو كؤوسا يتوج بها، في نزعة ذكورية جارفة، حد أنّه يرى - كما يروي المؤلف - أن أهم ما يستحق أن يعيش المرء من أجله هو أن يجامع زوجات أصدقائه، وحد لعبه لعبة ماكرة من أجل استدراج الأزواج إلى العزم على الخيانة بتزيينها في أعينهم حتى وإن لم يكونوا راغبين فيها، وتسجيل ذلك للزوجات وإسماعهن إياه حتى يستدرجهن بدورهن.

سادسا؛ استعداء الرئيس الصحافة عليه:

يبدأ الفصل الثالث من الكتاب بالحديث عن علاقة ترامب وإدارته مع الصحافة وتفضيل بانون استعداء الصحافة على تأليف قلوبهم، وذلك حتى صارت العلاقة مع هذه الصحافة تقوم على مفارقة غريبة: كلما دافع ترامب عن نفسه بصورة، كثفت الصحافة من مهاجمتها له ومن إحصاء كل حركاته وسكناته. وإذ سعى فريقه إلى طرح «وقائع بديلة» بل حتى «إعلام بديل»، فإن بعض الأوساط الصحفية لم تجد في تجديده لطريقة حكمه سوى ألوان من القصف المنظم وغير المراقب للصحافة بالغضب وسوء المزاج. كم مهولة هي مروية وولف. إذا ما نحن صدقناها. ولا يمكن أن نصدق كل ما ورد فيها: إما لغياب التوثيق أحيانا، أو لتناقض المرويات أحيانا أخرى . فإنّها ترسم لعالم ترامب رسما سوريراليا: هو عالم سلطة عمائية فوضوية، أشبه شيء يكون بعنوان قصيدة الشاعر الفرنسي «السفينة النشوانة» كل شيء يترنح فيها من سكر السلطة والشهرة، يرأسه رجل فظ غبي، وتمزقه ألوان من التنافس قاتلة يمضي فريقه سحابة يومه يتباغض. أكثر من هذا، يرسم لنا الكتاب عالم ترامب وكأنه أشبه شيء يكون بعالم تلفزيون الواقع: عالم فارغ، كلبي، بغيظ، حيث الشهرة والنجاح والمال هم البوصلة الوحيدة. وهو عالم يصف وولف شخوصه وأحداثه الدرامية بدقة، لكن مع إضافة ملح الوداع.وأخيرا، ثمة قصة طريفة رافقت توزيع الكتاب وبيعه. ثمة أكاديمي كندي يدعى راندال هانسن كان قد ألف في عام ٢٠٠٨ كتابا حمل العنوان نفسه الذي يحمله كتاب وولف. النار والغضب . لكنه دار على فحص أثر القصف بالقنابل الذي تعرضت له ألمانيا ما بين عام ١٩٤٢ و١٩٤٥ على السكان المدنيين. ورغم أنه بيع عدد محترم من كتاب راندال بعد صدوره، إلا أن المؤلف تفاجأ مؤخرا بعدد الطلبات الموجهة إلى شركة أمازون لبيع الكتب بأن صار كتابه الكتاب المطلوب الأول، ليكتشف في النهاية أنّ كل الذين طلبوه إنما التبس عليهم الأمر، فكان أن خلطوا بين كتابه وكتابنا هذا لصاحبه وولف!

اسم الكتاب: النار والغضب

من داخل بيت ترامب الأبيض

Fire and Fury

Inside The Trump White House

اسم المؤلف: Michael Wolff

دار النشر: Little Brown

بلد النشر: بريطانيا

سنة النشر: ٢٠١٨

لغة النشر: الإنجليزية

عدد الفصول: ١٦ فصلا فضلا عن ديباجة وتنبيه من المؤلف

* أكاديمي مغربي

حاليـاً في الأســواق.. مجلة التفاهم

عنوان العدد: قضايا الإنسان والعمران في ضوء القرآن

افتتاحية العدد: قضايا الإنسان والعمران في ضوء القرآن مسألتا: الأعراف الدينية والأخلاقية في بناء الإنسان والأطان- عبد الرحمن السالمي

المحاور

- الرؤية الأخلاقية والاجتماعية للإنفاق في القرآن - رضوان السيد.
- الزكاة والصدقات والأوقاف ونهضة المجتمعات الإسلامية الوسيطة - إبراهيم البيومي غانم.
- التربية الدينية الإسلامية وأثرها في مكافحة الفقر والفساد- عز العرب لحكيم بناني.
- التجديد في مسائل الوقف والزكاة لمكافحة الفقر في الأزمنة المعاصرة - نور الدين بن مختار الخادمي.
- المصارف الإسلامية ومستقبلها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية - توفيق الجامعي.
- إعلانات الفاتيكان بشأن مكافحة الفقر بين الدين والأخلاق - عز الدين عناية.
- جدلية الفقر والفساد و الاستبداد السياسي: مقاربة أخلاقية اجتماعية - أحمد زايد.
- مشكلات الفقر واللامساواة في المجتمعات المعاصرة (الرؤية الاقتصادية) - سمير أسعد الشاعر.

دراسات

- ماكس فيبر والاسلام: إشكالات وانتقادات - محمد الشيخ.
- الدين والألوهية في فلسفة هيغل - مصطفى النشار.
- بذل السلام للعالم رؤية فقهية مقاصدية - عبدالحميد عشاق.
- التسامح والحريات الدينية بين الدبلوماسية والدين - نوكس ثيمس.

وجهات نظر

- المواطنة والأزهر قراءة في الحالة المصرية - محمد كمال الدين أمام.
- الأمير شكيب أرسلان: من التفسير السياسي/ الديني إلى التفسير الجغرافي للأوضاع العربية والإسلامية الحديثة - محمود حداد.
- مدارس اللاهوت البروتستانتي الحديثة والتعددية الدينية: رؤية نقدية لبعض نظريات تدبير الاختلافات الدينية المسيحية الحديثة على

آفاق

- نحو تواصل جديد بين القيم الصينية والعربية - عبدالجبار تشو وي ليه.
- رؤية الفكر الاعتدالي للحضارتين الصينية والعربية من خلال التراجم الصينية - جين تشونغ جيه.
- منهج الوسطية منهج النجاح للحضارة العربية الإسلامية - دينغ جون.

متابعات

- مصحف مسقط الإلكتروني: أول المصاحف الإلكترونية ذات التفاعل من النص- احمد منصور.

مدن وثقافات

- مدينة قاشان (إيران/أصفهان) في المصادر المكتوبة - هاينز غاوبة.

الإسلام والعالم

- رؤية فيبر للإسلام وتكون الحضارة الإسلامية.

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net